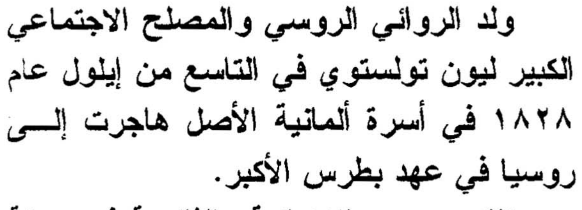
مئة عام على وفاة تولستوي

١٨٢٨ - ١٩١٠

بقلم:
عيسى فتوح



ولد الروائي الروسي والمصلح الاجتماعي الكبير ليون تولستوي في التاسع من إيلول عام ١٨٢٨ في أسرة ألمانية الأصل هاجرت إلى روسيا في عهد بطرس الأكبر.

تلقى دروسه الابتدائية والثانوية في مدينة موسكو حتى عام ١٨٤٦، ثم درس في جامعة قازان، وانتظم في الجيش الروسي سنة ١٨٥١، وشهد حرب القرم بين تركيا وروسيا، وقد استمد وقائع قصصه (أقاصيص سيبا ستبول) من تلك الحرب، ولما استقال من الجيش انتظم في إحدى الحلقات الأدبية في بطرسبرغ.

ساح في ألمانيا وإيطاليا، وتزوج سنة ١٨٦٤ ثم أقام في قريته (ياسنايا) القريبة من موسكو، وعاش مع الفلاحين حياة البساطة والتقشف.

كتب تولستوي عدداً كبيراً من المؤلفات منها:

كتاب الطفولة والفتوة والشباب الذي ألفه في القوقاز قبيل حرب القرم، ثم رواية الحرب والسلم وآنا كارانينا، والبعث، بالإضافة إلى بم يعيش الناس، حيث المحبة فهناك الله، ديانة المسيح، بماذا أؤمن، الحياة، مملكة الظلام، ملكوت الله داخلكم، الإنسان ورئيسه الوطن والديانة المسيحية، والاعترافات وقد قامت وزارة الثقافة بنقل مؤلفاته إلى العربية وهو المشروع الذي بدأه الدكتور سامي الدروبي وأكمله الأستاذ صياح الجهيم.

ضمن تولستوي كتبه ورواياته آراءه وأفكاره في الحياة كطرح الأوهام والخرافات والكبرياء ومعاملة الناس بالحسنى إلى إنكار الذات، وإيثار الغير على النفس، كما حاول

توزيع أملاكه على الفلاحين والفقراء، ليعيش عيشة المسكنة والفقر مثلهم، لكن زوجته أبت عليه ذلك، لكي تستطيع أن تعيش مع أولادها من وارد هذه الأملاك.

آراؤه وفلسفته

أشار تولستوي في إحدى رواياته إلى غايته الأولى من الحياة بقوله: (إن مثلي الأعلى هو الحق) وإذا نظرنا إلى المكانة الرفيعة التي احتلها في حياة أوربا الفكرية مدة ثلاثين عاماً قبل وفاته عرفنا أن تولستوي كان قوة فكرية عالمية لأنه كان يبحث عن الحقائق ويذيعها للناس في غير تردد أو ملابسة.

كان من أبناء الأشراف مولداً ونشأة وتهذيباً فاجتمع له في نفسه عنصران تلازما مع تناقضهما: الأول ذلك العنصر الحيوي الدافق الذي يدفع الشاب إلى الحياة بمسراتها وملاهيها.

والثاني هو ذلك التصوف الروحي الذي لا يتصف به إلا كبار المصلحين.

وقد ظهر فيه هذا العنصر الأخير ظهوراً واضحاً عندما كان لا يزال حديث السن، فقد ذكر في يوميته سنة ١٨٥٥ أن ـوراً علوي ـاء عقله ونفسه وهو السعي لتوحيد أمـ الأرض.

كان شاباً طموحاً إلى المجد، فتنازعه عاملان: الأول أن ينزوي في أملاكه ويعيش عيشة الأمير القروي، والثاني أن ينضم إلـ حاشية القيصر ويعيش عيشة أمر ـب وأشرافه وبينما هو يتردد بين العاملين انتظم في سلك الجيش وشهد معارك حرب القرم التي ذكرها في كتابه (أقاصيص سيباستبول) أدق وصف، وبين من خلالها فظاعة الحروب وأهوالها، الأمر الذي لم يجرؤ عليه كاتب من قبل.

وبعد سياحته في أوربا سنة ١٨٥٧ عاد إلى روسيا لينتقد رجال البلدان التي زارها وعادات سكانها، ثم انقطع إلى الحياة في الريف، فانشأ المدارس لأبناء القرويين، وانتصر للفلاحين على الأشراف أصحاب الأملاك، ولكنه سئم من القيام بعمل المصلح الشاق بعد انقضاء سنتين فتزوج وهو في الرابعة والثلاثين، وانزوى في أرضه مكباً على تأليف روايتيه العظيمتين (الحرب والسلم) و (آنا كارانينا) فصور في الأولى حياة الشعب الروسي في العقد الأول من القرن التاسع عشر، وفي الثانية طبقات الأشراف، وهاتان الروايتان من أبلغ الروايات التي كتبها وأقربها إلى الحقيقة حتى إن أحد كبار النقاد قال في الثانية: (هي الحياة على حقيقتها).

حين بلغ تولستوي الخمسين من العمر تولاه كره واحتقار شديد للحياة، وساوره تشاؤم أظلمت به نفسه رغم ما كان قد بلغه حينئذ من الشهرة والنجاح المادي، وسيطر على عقله مبدأ (الكل باطل وقبض الريح) وقد أشار إلى ذلك بقوله: (جاء علي حين من ـن صممت فيه على الانتحار تخلصاً من عذابي).

ثم راح يبحث عن الله ومعنى الحياة فلجأ إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، لكنه لم يلبث أن خرج من حضنها لأنه وجد رؤساءها يقيمون دون الكنيسة والدين حواجز لا يسمح لرجال المذاهب الأخرى باجتيازها، لأنهم ـ يؤيدون الحرب والإعدام، فوضح حينئذ قواعد عقيدته الدينية الخمس في الكتاب الذي سماه (ديني) وهي:

١- لا تغضب
٢- لا تشتم
٣- لا تربط نفسك بقسم
٤- لا تقاوم الشرك
٥- كن محباً للعادلين والظالمين

وأراد أن يطبق هذه القواعد على مشاكل المجتمع الروسي من دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية فاصطدم برجال الدولة ورجال الكنيسة ورجال الأعمال لأن المفكرين رأوا بعد قليل من إمعان النظر أن دين تولستوي القائم على مبدأ (لا تملك) و (لا تقاوم الشر) متعذر تطبيقه لأنه يجتث قواعد العمران من أصولها فيهدها هداً، وأشار كثيرون من منتقديه إلى أن تولستوي نفسه لم يتمكن من تطبيق عقيدته على حياته الخاصة. دع عنك حياة أمة كبيرة.

على أن صوته الداعي إلى توحيد الأمم في السعي وراء ما هو حق وصلاح، وفي القضاء على الشرور الاجتماعية في روسيا أولاً وسائر بلدان أوربا ثانياً أخذ يخترق الحجب التي ضربها دعاة المحافظة والتقليد على عقول الجماهير وضمائرهم في ذلك العصر، ولما نشر كتابه (ملكوت الله فيكم) سنة ١٨٩٢ حمل فيه حملة شعواء على استئثار الحكومة باستعباد الفلاحين لما فيه فائدتها، ومع أن الحكومة الروسية كانت تصادر أكثر رسائله وكتبه، كانت نسخ منها تصل إلى الأحرار من أبناء بلدان أوروبا فتتلقفها الأيدي كأنها آيات منزلة ومع ذلك لم تجرؤ الحكومة القيصرية على أن تناله بأذى، لما كان له من المكانة الرفيعة في قلوب الشعب.

لم تنحصر تعاليم تولستوي ومبادئه في روسيا فحسب، بل عمت دول أوروبا وتنبأ في كتابه (نهاية العصر) الذي نشره عام ١٩٠٥ بحدوث الثورة الروسية والقضاء على النظام القيصري، وأنه سوف تتبع هذه الثورة ثورات مماثلة في بلدان أوروبا وأميركا، وهذا ما حدث فعلاً.

ويقال إنه لقي الموسيقي الروسي غولد نقيز ذات يوم فقال له: "من الواضح أنه مع هذه المشكلات الداخلية والخارجية لا بد أن تصحو الأمة الروسية ذات يوم فتجد نفسها ممزقة شر ممزق. هي دولة عظيمة مترامية الأطراف الآن ولكنها قد تتفكك أوصالها بين عشية وضحاها إذا لم تتداركها الثورة".

قامت عبقرية تولستوي على هيامه بالحق واندفاعه في نشره، غير خائف فيه لومة لائم.

وأثره الخالد في حياة أوروبا الفكرية هو أولاً إيقاظه لفكر الجمهور الروسي عن طريق مباشر والجمهور الأوربي عن طريق غير مباشر.

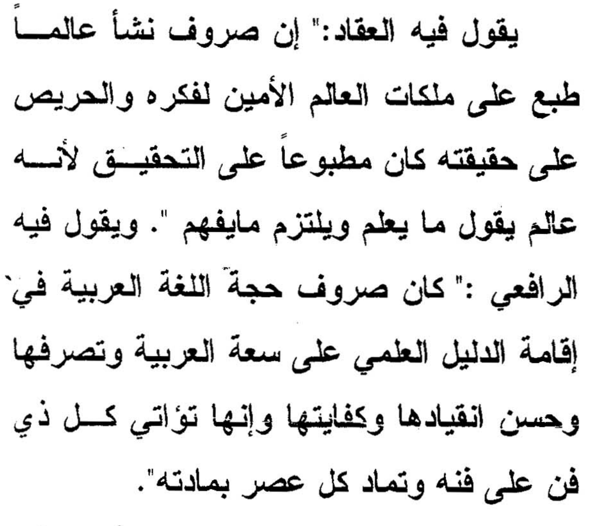
وتفتح عيون الجمهوريين لرؤية الشرور والمفاسد الاجتماعية التي تنخر أركان العمران.

وثانياً نزع الستار المسدول على تلك الشرور والتشهير بها، ومكانته كمعلم دولي أساسها هذه المقدرة الغريبة على اختراق الحجب وكشف الأكاذيب والشرور ووصفها ببلاغة تنفر القارئ منها وتثير فيه الرغبة في مقاومتها، فتولستوي كرجل فن أولاً، ومعلم يدرك إدراكاً خفياً معاني الحياة الروحية ثانياً، من أعظم الكتاب والمعلمين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

يعقوب صروف

العالم في إهاب الأديب

بقلم:
محمد دعاوي



يقول فيه العقاد:" إن صروف نشأ عالماً طبع على ملكات العالم الأمين لفكره والحريص على حقيقته كان مطبوعاً على التحقيق لأنه عالم يقول ما يعلم ويلتزم مايفهم ". ويقول فيه الرافعي :" كان صروف حجة اللغة العربية في إقامة الدليل العلمي على سعة العربية وتصرفها وحسن انقيادها وكفايتها وإنها تؤاتي كل ذي فن على فنه وتماد كل عصر بمادته".

هكذا كان صروف رجل العلم والأدب الذي ملأ الساحة الثقافية وشغلها طوال نصف قرن أي مايعادل ثلثي عمره الذي امتد ثلاثة أرباع القرن عاشه بين منتصف القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين (١٨٥٢-١٩٢٧) قاد أثناءها ثورة فكرية هزت العقل العربي وأيقظته من سباته وحررته من قيوده وأطلقته من أسر الخرافة والوهم إلى فضاء المعرفة والعلم.

على أرض مصر خاض صروف الشامي المولد والنشأة حرباً شعواء ضد الظلامية والجهل وحمل مشعل تنوير الأذهان بالحقائق العلمية الصحيحة فكان العالم المحقق المدقق المخلص للعلم والمحب للبحث والحريص على الحقيقة والملتزم بالأمانة العلمية كما كان الأديب صاحب القلم السيّال والأسلوب العذب والبيان السلس الواضح واللغوي المتمكن من

ناصية اللغة والمترجم الذي ينقل علوم الغرب ومنجزات حضارته إلى بني قومه والصحفي اللامع الرائد والمؤرخ صاحب الرؤية والنظرة التحليلية الناقدة والسياسي الواعي القادر على قراءة أحداث وأحوال عصره.

عُرِف صروف بنبوغ باكر فدخل الجامعة وهو ابن أربعة عشر عاماً عندما انتسب إلى الجامعة الأمريكية في مسقط رأسه بيروت وكانت تعرف آنذاك باسم الكلية السورية الإنجيلية فتخرج في أول دفعة بالجامعة حاملاً إجازة في العلوم وبعد تخرجه قضى ثلاث سنوات يدرّس في صيدا وطرابلس ثم عهد إليه بتدريس العلوم الطبيعية والرياضية والبيان في الجامعة بناءً على طلب العمادة فكان جمعه في التدريس بين العلوم والأدب سبب الشهرة التي نالها فيما بعد في عالم الكتابة فالعلوم الطبيعية والرياضية هي التي دربته على دقة التفكير والمنطق العلمي والرياضي وعلم البيان والأدب هو الذي أكسبه رشاقة الأسلوب وروعة التعبير وفي تلك الأثناء كان زميله فارس نمر قد تخرج وأصبح عضو تدريس في الجامعة فتمكنت بينهما صداقة دامت مدى العمر وجمع بينهما هدف مشترك سعيا إلى تحقيقه وفي سنة ١٨٧٦ أسسا معاً مجلة المقتطف أحد أشهر المجلات العربية وهما لا يزالان مدرسين في الجامعة وبقيا يصدرانها من بيروت مدة عشر سنوات ثم انتقلا بها إلى مصر حيث خاضا هناك معركة الكفاح من أجل التنوير وتابعا مسيرتهما المشتركة.

وفي مصر أسسا جريدة المقطم اليومية فانصرف فارس نمر إلى تحرير المقطم وتفرغ صروف لتحرير المقتطف وعن طريق هذه المجلة خدم العلم والأدب والحضارة لنصف قرن من الزمن ولم تكن الأرض ممهدة أمام المقتطف أو مفروشة بالرياحين بل مليئة بالأشواك والحفر والصخور الصلدة فالأفكار البالية والخرافات كانت قد عششت في العقول وأخذت مكانها في النفوس وكان الناس في واد والتفكير العلمي في واد آخر وكان تصورهم للكون وحقائقه مقصوراً على مجموعة من الأقاويل الباطلة والروايات الشفهية العجيبة التي تتناقلها الألسن وكثيراً ما أُضفي على هذه الأفكار والمقولات الرائجة المغلوطة طابع القداسة والتحريم والتسليم المطلق الذي لا يقبل نقاشاً أو مراجعة بل عُدَّ بعضها جزءاً من الدين أو صلبه وعمود سنامه لذا يعتبر القول بخلافها مروقاً من الدين وكفراً ما بعده كفر والحقيقة هي أن الدين من كل هذا براء. لقد كانت المهمة جسيمة أمام صروف ومجلته فاقتحم الميدان غير هياب ولا وجل ولكن بوداعة العالم الواثق بعلمه فقارع أشباح الخرافة وظلمات الوهم وموارد الجهل ولم يرضَ بالحجر على

العقل أو تعطيله أو الانحراف به عن جادة الصواب والتفكير العلمي.

أصبحت مجلة المقتطف على يد منشئها ومؤسسها منارة للفكر الحر وحازت القبول والاحترام ليس فقط لدى أبناء الشرق العربي وإنما الغرب الأوربي وباتت محط أنظار أهل الفكر والثقافة وصرحاً لطلاب الحقيقة الذين يرون في صروف العالم الفاضل والباحث الأمين والمحقق المدقق صاحب المنهج العلمي في البحث الذي لا يسلِّم بصحة النظريات مالم يقم الدليل العلمي على إثبات صحتها بغض النظر عن مكانة قائلها فهو كما يصفه الكاتب الكبير محمد حسين هيكل "وكان مع عظم احترامه للعلماء والمحققين لا يسلِّم بأقوالهم ونتائجهم ومذاهبهم العلمية عفواً ولطالما ناقش في المقتطف نظريات لهم لم يرتح إلى صحتها وأقام الحجة والبرهان على ضعفها".

ونظراً للجهود العلمية التي قام بها يعقوب صروف وصديق عمره فارس نمر قامت الكلية السورية في بيروت والجامعة الأمريكية فيما بعد بمنح هذين العالمين الجليلين شهادة الدكتوراة تكريما لجهودهما في خدمة العلم والمعرفة وحمل مشعل الحضارة. كما كرم صروف من قبل ملك مصر في احتفال ضخم أقيم على شرفه حضره المئات من الأدباء والعلماء وأرباب القلم ورجال الصحافة إلى جانب الشخصيات الرسمية في الدولة.

كان لصروف مقدرة فائقة على استيعاب الدقائق العلمية وهضمها وتمثيلها حتى إذا أخرجها قلمه أخرجها سلسة مهما عسر الموضوع ناصعة الألفاظ بليغة التركيب وكان له ذوق لغوي ممتاز ففي كل مباحثه ترى الألفاظ تحتل مواطنها المناسبة والجمل تأخذ بعضها برقاب بعض في اتساق يسهِّل على القارئ الانتقال من عبارة إلى عبارة وهو يشعر بمتعة في ذلك الانتقال هذه السهولة المحكمة الممتعة في ديباجته هي التي جعلته إماماً في المباحث العلمية على أنه قد بلغ غاية الإجادة في كتاباته فلا يشوبها جفاف ولا تفارقها تلك الطلاوة التي قلما توجد عند سواه من العلماء وقد ضيّق المسافة بين لغة الأسلوب العلمي ولغة الأسلوب الأدبي فكان يبسط أدق المعلومات في أسهل الألفاظ وأرشق العبارات مراعياً متانة اللغة وأصول البلاغة السليمة حتى شهد له كبار أهل اللغة والأدب بروعة البيان. يقول العلامة محمد كرد علي واصفاً أسلوبه: "كان يعقوب صروف يتوخى السلاسة في التعبير وقد رزق بياناً لا تكلف فيه ورشاقة في الأداء وإبلاغ المعنى يفاخر بها وقدرة على النقل والاحتذاء قلَّ أن داناه فيها أحد بموضوعه يقرأ المقالة الطويلة لعالم من

علماء أمريكا أو انكلترا فلا يلبث أن يلخصها في صفحات قليلة ويزينها بما يشرحها ويحبب إلى الناس مطالعتها".

أما الرافعي فيقول "لغويّ فيما يعمر بين الشرق والغرب يحمل بلسان ويؤدي بلسانٍ غيره ويوافق بين المعاني الجديدة والألفاظ القديمة يشابك بين خيوط التاريخ في هذه وهذه ويأخذ اللغة للاستعمال لا للحفظ والتدوين وللمنفعة لا للمباهاة وللفائدة لا للتنبّل. ويترجم وإن في خياله العالم الواسع الذي ينقل عنه بعلمائه وأدبائه وكتبه ومجلاته ومصطلحاته. ويكتب وإن له تلك الملكة الدقيقة التي كونتها العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية وغيرها فلم يكن بد من أن يبتدع وأن يكون له طريقة يوافق فيها ويخالف".

رفض صروف الأساليب الكتابية النثرية السائدة في عصره والتي كانت مثقلة بضروب التزيين اللفظي وأنواع البديع وقائمةً على السجع وخاليةً من الروح والمعنى في أكثر الأحيان ومهتمةً بقشور القول وحوشي اللغة مما لا يتناسب مع روح العصر ولا يؤدي للوصول إلى غاية مفيدة وهدف مثمر ولا يحمل فكرة أو يقدر على توصيل العلم والمعرفة يقول العقاد عن موقف صروف هذا: "وإنما أفاد الأدب فائدته النفيسة من جانب القصد والتحقيق لأن الأدب في ذلك الزمن كان أحوج شيء إلى قصد العبارة وتحقيق المعنى وكان كلاماً لا مغزى له ولا روح ولا غاية له وراء الألفاظ المرصوفة والجمل المحفوظة والتزويق الذي لا يرضاه ذوق الجمال".

ولصروف آثار أدبية تتنوع بين الروايات والمقالات وكتب التراجم والسير وكلها تنم على دقة نظر وسعة اطلاع على حياة عصره وأحوال بيئته وجمال أسلوب كاتبها وروعة بيانه وطلاوة لغته ورقة لفظه وسمو أهدافه الإنسانية النبيلة فمن رواياته: فتاة مصر وأمير لبنان وفتاة الفيوم ومن كتبه في التراجم: أعلام المقتطف والرواد وسر النجاح ورجال المال والأعمال. وليس بخافٍ على أحد ما لصروف من فضل في الترجمة والتعريب ووضع المصطلحات العلمية باللغة العربية والتي لاتزال شائعة على الألسن فمن مصطلحاته التي وضعها باللغة العربية اللاسلكي والكهرب والنواة وعلم الأحياء (البيلوجيا في اللاتينية) وعلم النفس (البيسكولوجيا) والصحافة وتنازع البقاء والدبابة والغواصة وغيرها من الألفاظ.

كان صروف شعلة من النشاط والحيوية المتقدة لا يعرف الكلل أو التواني في العمل ولا يثنيه الملل أو اليأس وهو القائل: "النشاط يوصل الإنسان إلى أعلى مراقي النجاح مهما حال دونه من الموانع". إنه الكاتب الذي استطاع أن يجمع بين رزانة العلم ودقته وطلاوة الأدب وبيانه فهو دون مراء إمام الكتابة العلمية في زمانه.

المراثي في شعر عبد المجيد التجار

بقلم:
عبد اللطيف الأرناؤوط

لعلّ الرثاء والمديح في الشعر العربي القديم من أكثر فنون الأدب التي تعرّض لها النقد المعاصر بالرفض والهجوم والنكران بحجة أنهما استنفذا كل طاقات الشاعر العربي الشعرية، وجمد بهما الشعر عند صيغ مكرورة وعواطف زائفة تقوم على التهويل والمبالغة والإفراط في الثناء أو التفجع، مما دفع ناقداً مثل "أمين الريحاني" في كتابه (أنتم الشعراء) إلى السخرية من دموع الشاعر النوّاح الذي لا يفترقٍ عن النادبات المأجورات في المآتم.

ترى.. هل استطاع النقد أن يحدّ من جموح هذه العاطفة الإنسانية، والتي يعبّر عنها الشاعر بدافع الإعجاب بإنسان متميّز ترك بصمات لا تمحى في حياة المجتمع أو من حوله من الناس، أو يكبح جماح الأسى الذي يغمره لفراق قريب عزيز أو صديق ودود؟

لا يريد النقد من الشاعر أن يتبلّد إحساسه تجاه الآخرين، وإنما يطمح أن يكون المديح والرثاء أقرب إلى الصدق في رسم الممدوح أو المرثيّ، فلا يمدح الإنسان أو يرثيه إلا بما فيه من قيم ومناقب جديرة بالتنويه، وأن يكف عن الإفراط في تأليه الممدوح وتنزيهه من العثرات، فابن آدم خطّاء ولن يتجرد مهما سما من المعايب، وليكفّ الشاعر عن التهويل في الثناء والمدح أو الإفراط في إبراز وقع المصيبة أمام الموت عليه وعلى من حوله من الناس، حيث ينفرط عقد الكواكب في كبد السماء، أو تغور النجوم في الأفق، أو تسيل دموع المشيعين جداول وأنهاراً..

ويبدو أن المديح والرثاء لن يتلاشيا مادامت العاطفة الإنسانية التي أوجدها الله فينا قائمة في أعماقنا، وعلى الرغم من ثوره المحدثين على تلك الأبواب الشعرية التي استهلكت معانيها وصيغها لكثرة التداول،

فمازال الرثاء على سبيل المثال يحتل مكانة بارزة في شعر الشعراء الاتباعيين المحدثين من أمثال: أحمد شوقي، وحافظ ابراهيم الذي يقول:

ولو تصفحت ديواني لتقرأه
وجدت شعر المراثي نصف ديواني

ولا يختلف الأمر لدى شعراء الرومانسية، وهم أكثر احتفاء بالعواطف والمشاعر الذاتية، كذلك لم تسلم المذاهب الشعرية الحديثة من رمزية وسريالية من قصائد شعرية يمدح فيها الشاعر إنساناً عظيماً شاعراً، أو يرثيه بدافع إعجابه به وتقديره لعطائه.

يحتل شعر المراثي في المجموعة الشعرية الكاملة للشاعر عبد المجيد التجار حيزاً كبيراً، إذ يبلغ عدد المراثي فيها إحدى وخمسين مرثية من الشعر والنثر لراحلين ربطتهم بالشاعر صلات القربى أو الانتماء المحلي والوطني والصلات الإنسانية الواسعة التي عقدها بحكم عمله ضابطاً في سلك الشرطة ومحافظاً تارة، مما وسّع دائرة معارفه وأصدقائه، إضافة إلى ما تميّزت به شخصيته من وفاء وانفتاح على الآخر، وما فرض عليه نهجه الشعري كشاعر اتباعي حديث يترسم خطا الشعر القديم في قصائده ويحتذي موضوعات وصيغاً وديباجة شعرية، وكأنه في دخيلته كان يدرك جيداً موقف النقاد من شعر الرثاء التقليدي وبرمهم من بعض ما ورد فيه من مشاعر زائفة.. فمهّد لهذه المراثي بقصيدة عنوانها (أنا والرثاء) دافع فيها عن حق الشاعر في التعبير عن عاطفته الإنسانية التي تملي عليه إبراز مشاعره تجاه الراحلين ممن ربطته بهم في الحياة أواصر المحبة والصداقة والقربى، وقد صدّر هذه القصيدة بالحديث النبوي الشريف "اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساوئهم" وهو يسوق الحجج التي يدافع بها عن شعر الرثاء، وأولها حق الإنسان في التعبير عن مشاعره الذاتية، وإبراز مناقب الراحلين ليهتدي بها الأحياء:

فياليت شعري كيف تزهو حياتنا
إذا ما نسينا من قضى وتغيّبا
وما يضر المرء لو كرم الألى
وودع من أعطى وربّى وهذبا
أننساهم والغار يعلو جباههم
وقد فتحوا الأمصار شرقاً ومغربا
فمن ثائر روّى ثرانا بسيفه
فكان لنا في حلك الليل كوكبا
ومن عالم بالطب عاش حياته
لمرضاه إنساناً رحيماً مطببا
ومن كاتب كان اليراع سلاحه
يعانق رمحاً بالدماء تخضّبا
ومن شاعر لم يُنشد الشعر متعة
ولا صاغه مدحاً رخيصاً وأطنبا
فذكر امرئ بعد الرحيل بموقف
نبيل له حق علينا ترتبا
وقل لهواة النقد ما قاله الألى
بأن المراثي أشرف الشعر مذهبا
فلا هي تبغي من فقيد منافعاً
ولا هي تسعى أن تحقق مرغبا
سأبقى فخوراً بالمراثي لعلّها
تخلد شهماً كان في الأرض كوكبا

ولو استعرضنا الراحلين الذين رثاهم الشاعر على تباين طبيعة الصلة التي ربطته بهم، لاتضح لنا أن أكثرهم ممن جمعته بهم روابط الزمالة في العمل، أو صلة القربى والنسب، أو الانتماء المشترك إلى البلدة

الواحدة والمنطقة، وبعض أعلام العلم والأدب، والقادة المناضلين البارزين، ممن لهم من جلائل الأعمال ما يستحق الإشهار، حتى لو فاتته فرصة المشاركة في التأبين لظرف طارئ كان يعوّض عن تقصيره بكلمة تأبين نثرية تعبّر عن مشاعره نحوهم، وذلك بدافع الوفاء من جهة، وتحت تأثير العلاقة الاجتماعية السائدة في المجتمع، إذ فرض على الشاعر أن يكون شعره صدى للفجائع التي تحل بالوطن، ومنها خسارة مبدعيه التي لا تعوّض، وأن صمته يُعد تقصيراً.

والشاعر عبد المجيد التجار بحكم نهجه الاتباعي يحتذي مراثي الشعر العربي القديم، لكنه يوائم بين ما حفلت به من معانٍ وصيغ وما يفرضه تطور الحياة من مستجدات، ويتجلى تجديده من خصوصية وذاتية، وهو يجهد أن تجيء صورة الراحل صادقة جلية بما قدّمه من مآثر حميدة في حياته، ويجاري منهج المرثية التقليدية، فيرسم في مطلع مرثياته أثر الفجيعة في حياة الناس والوطن، ثم ينفذ إلى رسم صورة الفقيد وما حفلت به حياته من الأعمال الجليلة، وقد يخرج في كثير من الأحيان إلى الحكمة، بحكم أن الموت بحد ذاته عبرة وعظة وتنبيه للإنسان الغافل عنه ليجعل حياته معنى.. من ذلك مطلع مرثية للعلامة الشيخ "عبد القادر القصاب" وهو أحد أعلام بلدته "دير عطية" إذ يستهلها بقوله:

أوّاه يا عَلَمَ الإسلام أوّاه
أوّاه من قدر طاشت مناياه
أوّاه من ناعق بالبين يُحزننا
ربّاه صبراً على المحزون ربّاه
خطب يزعزع دنيانا ويفجعنا
بمن فقدنا حمانا إذ فقدناه
تفتّت القلب من حزن ومن جزع
وأُدْميَ القلب من دمع ذرفناه

فالشاعر كما نرى يحتذي نهج القدامى في تصوير الفجيعة، ويستعير تعابيرهم "ناعق البين" ويحدد منذ البيت الأول هوية الراحل "علم الإسلام" حتى إذا فرغ من تصوير أثر المصاب رسم صورة العلامة الراحل، فمنحه خصوصيته الإنسانية وهويته الثقافية ومبادراته الاجتماعية:

كم كان يشرح أحكاماً وينظمها
شعراً رقيقاً بمبناه ومعناه
"وكم سمعناه يروي ما تعلّمه
حتى يُعلمنا ما قد جهلناه
كم ردّ لهفة ملهوف به عَوزٌ
لم تدر يسراه ما تعطيه يُمناه
يأوي إلى كل قلب بات منكسراً
يارب فاجعل جنان الخلد مأواه
ما مات من وسم الدنيا بميسمه
وردّد الفَلَك الدوار ذكراه

وقد يترسم خُطا الأقدمين في إظهار مشاعره الصادقة تجاه الراحل إن كانت تربطه به صلة حميمة فيتمنى لو يفتديه بدمه لو كان ينفع الفداء في ردّ غائلة الموت، كما في قوله راثياً الراحل "اسماعيل قولي" رجل القانون والإدارة:

لو يصحّ الفدا لإسماعيل
لتمنيت أن أكون الفدائي
ولو أن الدموع تُحيي فقيداً
لاستعضنا عن دمعنا بالدماء
وسكبنا أرواحنا في القوافي
واستعرنا مراثي الخنساء

ويُحسن رسم صورة الفقيد وخصوصيته، فيقول:

صاي النفس منصفاً مستقيماً
مرهف الحسّ سامي الأهواء
عاش للحق لا يُطيق التعالي
من قوي يقوى على الضعفاء
عاش للعدل ينفر الظلم منه
إنما الظلم شيمة الجبناء
يا رجال القانون عزّ علينا
أن يُصاب الأبناء بالآباء

وقد ينفذ إلى الحكمة مبرزاً تقصيره عن وفاء المرثي حقه:

إن تجرأت أن أصوغ المراثي
بين رهط الكتاب والشعراء
فاعذروني فالدمع سدّ طريقي
فرأيت الصواب في أخطائي
كثرة الغيث كم أضرّت بأرضٍ
وأطاحت بزرعها المعطاءً

ويطول حجم مراثيه في تأبين القادة البارزين بدافع حرصه على التفصيل في ذكر مناقبهم الخالدة، فيرى في فقدهم خسارة للأمة والوطن، وللرعية التي فقدت راعيها. ولفلسطين الجريحة، وللتاريخ الذي صنعوه بالبطولات والإقدام والشجاعة، وربما نفذ من تعداد مناقبهم إلى التغني بدورهم إلى إحياء عزيمة الشعب وشحذ عزائمه لمتابعة المسيرة النضالية للراحل.

يخاطب الرئيس جمال عبد الناصر في النعش قائلا:

أمفجّر الثورات يغمرها الهدى
كم صنتها من فتنة وضلال
يُنبت على الخلق القويم كأنها
نفحات ذي الإكرام والإجلال
فاهنأ بمثواك الأخير منعما
فالشعب نسّاجٌ على المنوال
إن العظام حياتهم لا تنتهي
بنهاية الأعمار والآجال

فقد بدا الرثاء في شعره القومي سانحة يستغلها الشاعر لتجديد بنيان الأمة ولمّ شملها والتحذير من المخاطر المحدقة بها. ويرى في نضال قائد الثورة على المستعمر الفرنسي "سلطان الأطرش" البذرة التي شجعت الشعب العربي السوري على مواجهة المحتلين فكانت فاتحة كفاح تكلل بالنصر:

يا راحلاً عن حمانا كلما خفقت
راياتكم جددت وجداً وأشجانا
لئن فقدناك في ساح الوغى بطلا
ويوم تلطمنا الأمواج ربّانا
ففي عرينك آساد إذا غضبت
ثار العرين على الباغين بركانا

وبهذا تُوسّع الاتباعية الحديثة آفاق الرثاء وتنقله من إطاره الفردي إلى آفاق الجمعية العامة، ليغدو بلسان الشاعر رسالة قومية واجتماعية ملتزمة.

ومما بلغت النظر في مراثي "عبد المجيد التجار" ظاهرتان تستحقان النظر، أولاهما أن هذه المراثي نظمها الشاعر ما بين عامي ١٩٩٦ و ٢٠٠١م وفق ترتيبها الزمني، أي في سن اكتهال الشاعر واتساع دائرة صلاته الإنسانية والتزاماته الاجتماعية، غير أن نهجها وخصائصها لم يلحق بها التغيير أو التطور في المعاني والأساليب. إلا ما كانت تتميز به بعضها من حميمية المشاعر لعمق صلة الشاعر بالمرثي، ومدى ارتباطه به.

أما الظاهرة الثانية، فهي تتوجه لرثاء الرجال باستثناء قصيدتين بل ثلاث قصائد خصصها الشاعر لرثاء المرأة منها قصيدته في رثاء ابنته "منى" وأخرى في أمه، وثالثة في رثاء والدة أحد أصدقائه، ربما يرد ذلك إلى طبيعة العلاقات الإنسانية في المجتمع الشرقي المحافظ، حيث مازالت الحواجز تحول دون اختراق الحجب التي تحول دون التواصل الإنساني بين الرجل والمرأة، وعلى الرغم من تحقق خطوات في مجتمعنا حيث اسهمت في إزالة هذه الحواجز، لكن الواجهة الإنسانية لهذا المجتمع ظلت تمنح الرجل فرص الحرية في التعبير والحركة الاجتماعية أكثر مما يُتاح للمرأة.

والشاعر "عبد المجيد التجار" في رثاء أمه يُجيد رسم صورتها ويحررها من التبعية للرجل، فهي كبيرة قوم، نافذة الكلمة، وصاحبة رأي سديد، وهي واحدة من نساء التاريخ اللواتي كان لهن دور قيادي، وسلطان في تصريف الأمور:

وإن حدثّت أصغى لها جلساؤها
ليستمتعوا بالعلم والأدب الجمِ
إذا قطعت في رأيها كان صائبا
وإن أبرمت حُكما فبورك من حكم
هي الأم دنيا من حنان ورقة
ويا ربُ كم تقسو الحياة بلا أم

لقد رفع الشاعر من قدر المرأة في مجتمعه، فلم يجار حذر القدامى من أن يرفعوا رتبة المرأة إلى مستوى رتبة الرجل، وهو في رثاء فلذة كبده ابنته "منى" يستسلم بصدق لمشاعره الأبوية، وقد خلت المرثية فيها من أي حكمة أو فلسفة للموت، فقد يواجهه الشاعر بقسوته التي لا ترحم إذ فجعه بأعز ما يملك:

لهفي على عمر تقضى بالضنى
والداء فتاك الشرور وبيل
أنا إن رثيتك بعد عام يا ابنتي
فالعذر أنني ضائع مذهول
أرجو لك العيش الرغيد بجنة
فيها تقيم مع البتول بتول

وأخيراً أن فن الرثاء لدى الشاعر "عبد المجيد التجار" لم يكن تجسيداً لعلاقة فردية بين الشاعر والراحلين، فقد وسّع أفقه ليجعله رسالة وطنية وقومية واجتماعية توجّه للأحياء، ولم يحل اتكاؤه على التراث في المراثي بل يجدد في معاني الرثاء، فيجعله خطاباً إنسانياً موجهاً للأحياء، وقد جهد في إضفاء النقاء والنبل على شخصية المرثي، وإبراز خصوصية القيم التي تبناها في حياته لتكون هَدياً للأجيال، وإن لم تسلم مراثيه من مطاعن عدّها النقاد عيوباً كالمبالغة والتهويل والمباشرة والجري وراء تفصيلات في حياة المرثي أسلمته إلى لون من النثرية أحياناً والتضحية بالجمال الفني لمصلحة المعاني، واللجوء إلى الحكمة ومعطيات العقل على حساب صدق الشعور.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد نجح الشاعر في إيصال رسالته الشعرية بوضوح ورائده في ذلك إيمانه بالدور الذي يمارسه الشعر في حياة الوطن والأمة، فهو عند الاتباعيين المحدثين ديوان العرب ومرجعهم، ومدرسة لترقية المشاعر وترسيخ القيم، فإن فقد رسالته ضعف دوره في حياة المجتمع.




رحلتي مع اليراع

د.محمد العيد الخطراوي

سلمتَ يراعي من المخزيا
ت، وعشتَ عفيفاً، كريم الشيم

وصليتَ في حلبات البيا
ن، بشعر أصيل، شهي النغم

ونثر بديع، تَراقصُ فيه الـ
ـحروف نشاوى، وتحلو الكلم

فللشعر منك مواويلُه
تنافس كلّ بنود العجم

وتلقاك فيه شفاه العذارى
تَضُوع نداءً ثريَّ الحلُم

وللنثر منك أكفُّ الصبايا
تدق الدفوف وتجلو العصم

وتدعوك في حِكَمٍ بالغا
ت، لحفظ الإخاء ووصل الرحم

فإما طربْنا، وإما اكتأبنا
وإما اعتصرنا دموع الندم

وأحلامُنا: حلُمٌ يتشظى
وآخرُ يغشاه روح القِدم

فيفنى القديم، ويبلى الجديد
ويلتاث بالعارض المدلهم







وبين ضلوعك أودعُ سري
وأفرغ فيه كؤوس الألم
وفي كل درب أسائل صحبي
عن الفجر، والفجر ملء اللِّمم
وفي كل فجر أواجه ليلاً
كثير المواجع لا ينحسم
فعقلي أنتَ، وحسي أنت
وفكري أنت إذا ما اضطرم
وأنت هواي، وأنت مناي
وأنت غنائي ولحني الأتم
فمرني بما شئت يا سيدي
فكل شؤونك أمر مهم
وسجل تواريخنا في اعتداد
فبعض التواريخ لا ينسجم
وبعض هوامشنا مارق
بعِقْد الحقيقة لا ينتظم
يراعي! برئتَ من السخف قولاً
وفعلاً، وحزت الحجا والحكم
وجزتَ من المجد أعلى الذرى
وحققت ما كنت ترجو، فنَمْ
ولم يتلبسك يوماً نفاق
ولم يتخللك في الناس ذم
وأنى اندفعتَ ارتفعتَ مكاناً
وحلقت كالنجم فوق الأكم






وأثنـــى عليـــك الرفـــاق، وقـــالوا:
تبـــارك هـــذا الـــيراع الأشـــم
تنـــام علـــى شـــفتيه الأغـــاني
وتصـــحو الأمـــاني وتحيـــى الـــذمم
ويبقـــى كمـــا هـــو شـــهماً أبيـــاً
يطيـــب كِمامـــا، ويختـــال كُـــم

* * *

يراعـــي الحبيـــبَ، عشـــقتك طفـــلاً
وكهـــلاً فتيـــاً، بعيـــد الهمـــم
وطاولـــت فيـــك بنـــات الهديـــ
ـــل، وباريـــت فيـــك حمـــام الحـــرم
وغنيـــت في موكـــب الشـــعر لحنـــاً
يتيـــه بحبـــك بـــين الأمـــم
وهـــا أنـــا مازلـــت أشـــدو بحبـــ
ـــك شـــيخاً، وكـــم ذبـــت فيـــك! وكـــم!
ومـــازال في الكـــأس منـــك بقايـــا
تزودنـــي بـــالربيع الأجـــم
وتبعـــثني كـــلّ يـــوم شـــباباً
يفـــيض عطـــاءً، ويزكـــو نغـــم
ويـــزرعني في صـــدور المريـــا
رؤىً ثـــرّةً، وخيـــالاً أحـــم
فإمـــا كتبـــتَ، وإمـــا زمـــرتَ
فأنـــت الفخـــور بـــوحي القلـــم







وأنـــت مـــن الليـــل لحـــن شـــجي
يصـــد الكـــلال، ويجلـــو الســـأم
وأنـــت مـــن الفجـــر أضـــواؤه
تظـــل ترفـــرف فـــي كـــل فـــم
وتطلـــق آهاتهـــا فـــي حنـــان
كطيـــف تـــوارى، وطيـــف ألـم
وفي اللـــوح كانـــت لقاءاتنـــا
تلـــوح كبارقـــة فـــي الـــديم
ترسِّـــخُ فينـــا مضـــامينَه
وتنفحنـــا بجزيـــل الـــنعم
هـــو الـــذكر في آيـــة قـــد حبـــو
تُ، ومـــن آيـــه قـــد قبســـت القـــيم
وعشـــت لـــه، وبـــه ســـيدا
لقـــومي، علـــوت بـــه فـــي القمـــم
وبـــين الـــدفاتر والكتـــب كانـــت
حيـــاةً لنـــا تســـتثير الـــرِّمَم
تغنيـــت فيهـــا بطيبـــة شـــعراً
ونثـــراً صـــقيلاً لـــه يحـــتكم
وســـطرت إليـــاذة في حنـــيني
إليهـــا، وشـــوقي بهـــا يـــزدحم
وأســـندت رأســـي إلى حجرهـــا
وأكـــدت أنـــي بهـــا ألـــتحم
وفي فيئهـــا الأبـــدي ارتضـــعت
مفاخرهـــا بـــين لـــثم وضـــم







أحــن إليهــا وســكناي فيهــا
حــنينَ وليــدٍ إلى صــدر أم
وأصــبو إلى أرضــها في اشــتياق
فــإن أغمضــت عينهــا لم أنم
وإن أهملــت ذات يــوم لقــائي
تنــاوب قلــبي الأســى والألم
يراعــي، لطيبــة أنــتَ، فــلا
تجــف مــداداً، ولا تــرتطم

* * *

يراعــي نــذرتك للمكرمــا
ت وأنــت أصيل ســليل الكــرم
وأنــت إذا شــئت كنــت حَمامــاً
وإن شــئت كنــت الحِمــام الملــم
وكــم جنــة نوهــت في الــورى
بــرب الحســام ورب القلــم
وكــم فتنــة أطفــأت نارهــا
وزار الصــراع بهــا وانهــزم
ولــو كنــت متخــذاً مــن رفيــق
تخــذتك في النــاس خــالاً وعــم
وأودعــت فيــك جميــل الــرؤى
وجنبتهــا في يــديك الــنقم
ولــولاك مــا انبعثــت زهــرة
ومــا زان خــط، ومــا زال غــم






ومـــا قـــام في الـــوطن العربـــي
رجـــال لهـــم ألـــف هـــم وهـــم
يمـــرون فـــوق رؤوس الليـــالي
واعتـــزازاً وفخـــراً وعزمـــاً عـــرم
وتمضـــي بـــك الآه شـــوطاً بعيـــداً
يكـــاد مـــن الأيـــن أن ينهـــدم
كأنـــك في راحـــة المســـتحيل
عـــذاب ينـــوء يفـــيض الـــتهم

* * *

يراعـــي أشـــكو إليـــك زمـــاني
وأبكـــي، ومـــلء جفـــوني دم
وفي معصـــمي تـــئن القيـــود
وتبكـــي على عمـــري المنصـــرم
وينـــزف جرحـــي ذلاً، ويهمـــي
وجـــرح المذلـــة لا يلتـــئم
ويـــزدحم الصـــمت فـــوق شـــفاهي
كمجتمـــع الخُـــرسِ في حفـــل صُـــمّ
وفي داخلـــي ألـــف صـــوت حمـــيم
وآخـــر يقـــذفني بـــالحمم
وهـــا أنـــا أحمـــل نعشـــي وأمضـــي
وحـــولي يهتـــاج وادي العـــدم
ويلتـــاث دربـــي بـــأوزاره
فتكبـــو الســـروج وتنبـــو اللجـــم
ويصـــنع منـــك رحيلـــي انكســـاراً
وقـــد كنـــت مـــن قبـــل لا تنهـــدم







رحيلـــي منـــك إليـــك اهـــتراءً
علـى حافـة المـوت، والمـوت حـمّ
رحيلـــي إليـــك هـــزيم الريـــاح
وفوضـــى العواصـــف إذ تحتـــدم
حنانيـــك يـــا قلـــب لا تبتـئس
ففيـــك ومنـــك تجـــود الــنعم
ورب رحيـــــل يجـــــر ســـــلاماً
ورب رحيـــــل يجـــــر النـــــدم
وقـــد كـــدت أكســـر يومـــاً يراعـــي
وألقـــي بـــه فـي مهـاوي العـــدم
وكـــدت أشـــقق يومـــاً طروســـي
وأرمـــي فتافيتهـــا في الســـدم
وكـــدت أريـــق مـــداد دواتـــي
وأنثـــر أجزاءهـــا في الـــرمم
لمـــاذا! لأنـــي أضـعت طريقـــي
إلى العـــالم الســـاحر المنسجم
ولكـــنني عـــدت فـــوراً لرشـــدي
بـــرأي أريـــب، وفكـــر أتم
وأدركـــت أن الحيـــاة يـــراع
وطـــرس وحـــبر ووحـــي قلـــم
وجـــردت مـــن كبريـــائي ســـيفاً
كمثـــل يراعـــي بعيـــد الهمـــم
رفضـــت بـــه ســـخريات زمـــاني
وعلمتـــه لغـــة المنـــتقم
وباســـم يراعـــي بـــدأت حيـــاتي
وأنهيتهـــا بصـــرير القلـــم




في قصر المرايا

بقلم:
فاضل السباعي

بعد ٱنصراف آخر أصدقاء الليل، وهو في المقهى ما يزال، رأى رجلاً يتقدَّم نحوه وقد علَتْ وجهَه ٱبتسامةٌ عريضة، سرعانِ ما عرف فيه واحداً من رجال السلطة المحنَّكين.

– اسمي "ش"!

أجابه:

– ولا أظنّ أنك تجهل أنّ ٱسمي "ش"، بفارقِ ثلاث نُقاط... لصالِحك!

– ولو، يا أستاذ "س"، أنت كاتبٌ معروف ومرموق!

– وتعلم أني لست من المُوالين.

– لهذا جئت إليك.

– وماذا تريد منّي في آخر هذا الليل.

– أن أعرض عليك أمراً على درجةٍ من الأهمّيّة.

– أُفّ! عمرها السلطة لم تتذكّرني بخير.

– رِهَان... إنْ كسبتَه ٱستحققتَ مكافأةً تُمكِّنك من ٱمتلاك بيت فخم وٱقتناء سيارةٍ فاخرة فارهة!

– ...! ...! ...!

– ذلك إن ٱستطعتَ – وأنت الكاتب القدير– أن تُنجز عملاً قصصيّاً من ألفين وخمسمئة كلمة، خلال خمس ساعات!

فأطلق "س" ضحكةً تردَّد صداها في أرجاء المقهى العتيق.

– لا تضحك هكذا، يا أستاذ "س"، فليس الأمر سهلاً كما قد يخطر في بالك.

- أنا لم أضحك فرحاً بالمكافأة التي تُغرِيني بها، ولكني أضحك لغرابة الرهان!

- لعلك تضحك ثانيةً إذا ما أفصحتُ لك عن تفاصيله: أن تبدأ بكتابة القصة في منتصف ليل وتنتهي منها عند مطلع الفجر! وإنّ لي أن أختار بنفسي واحداً من ٱثنين: إمّا موضوعَ القصة التي ستكتبها، وإمّا تعيينُ الليلة التي يجري فيها الرِّهان.

تبسّم "س":

- دع موضوع القصة لي!

- فإنْ نجحتَ،حصلتَ على ألفِ ألفٍ من عملتنا الوطنيّة الحبيبة.

- أهكذا تُبَدِّدون أموال الخزانة العامّة!

- كلاّ، إنها "ملعوبة"، ذلك أنك إنْ لم تنجح..

قاطعه:

- لعلّك تقول أدفعُ لك مثلها، أو ضِعْفها! ولكنكم تعرفون أني لست ممّن يملكون.

- إنْ لم تنجح لم يترتّب عليك سوى خسرانِك سُمعتَك الأدبيّة أمام جمهور القرّاء!

تعجّب "س":

- يا له من رهان غريب!

- لا غرابة ولا ٱستغراب. نحن نريد إسكاتَ الأصوات الأخرى بكلّ وسيلةٍ نملكها.

- أترونني إلى هذا الحدّ "قذًى" في أعينكم! لقد ظللتك تُقدّمون للناس باقاتٍ من الشِّعارات البرّاقة، وتفرُشون لهم الأرض بالورود. والآن ترغبون في تدمير سُمعة كاتب تعترف أنت بأنه معروفٌ ومرموق، وقديرٌ أيضاً... ما غيَّركم؟ ألا تؤمنون بتفتّح الأزاهير في المجتمع؟

- هذه ليست أزاهير. نحن نرى كلّ واحد منكم أشبهَ بحبّةٍ في عنقود "الزَّنْزَلَخْت" السامّ!

- أرك تبالغ في ٱستفزازي، يا أستاذ "ش"!

- لأني أريدك أن تستجيب للتحدّي.

أعلن "س" بعزم:

- قد قبلتُ الرِّهان!

وٱندلعتْ هنا، من فم "ش" الواسع، ضحكةٌ مُجَلْجِلة، على حين كان "س" يُحسّ بأنّ نفسه قد ٱمتلأت ثقةً، وأنّ صدره قد شُحِن عزيمةً، وأنّ رأسه قد أُترِع أفكاراً وخواطرَ عظيمةً، يستطيع بها أن يؤلّف كتاباً شبيهاً بـ "كَليلة ودِمْنة"، يُندِّد فيه - ولكن على لسان الإنسان - بغطرسة الحُكّام ويشفق على ظلم المظلومين.

سأله "ش":

- نبدأ الليلة؟

ٱستجاب "س":

- فلنبدأ الليلة!

- دونك العقد: ألفان وخمسمئة كلمة. خمسُ ساعات. ألفُ ألفٍ، أو خسارةُ السُّمعة.. وقِّعْ هنا.

مقدِّماً له قلمَه.

- أُوقِّع بقلمي!

وقَّعَ "س" بكبرياء. وقرأ، في أثناء ذلك. الصفةَ التي يتسمّى بها الطرف الآخر: "مسؤول الأمن الأدبي"!

- والأدب أيضاً جعلتم له "رجالَ أمن"! فأنت مَن يَرْفَع الوضيع ويَضَع الرفيع، في عالم الأدب في البلد!

- كم تأخَّرتَ في معرفة ذلك! قد تمّ توقيع العقد... لنبدأ، هيّا.

- إلى أين؟

- إلى "قصر المرايا"!

- وما "قصر المرايا" هذا! أنا لا أكتب في القصور. تعوّدتُ الكتابة في بيوتٍ يطردني منها أصحابُها كلّما عنَّ لهم طلب الزيادة. الوحي لا يتنزّل عليّ إلاّ في بيت تَعبَق فيه رائحةُ الفقر والإبداع، أو في المقاهي العتيقة التي ينتشر في فضائها دخان السكائر والتنباك المُعَسَّل.

رماه "ش" بنظرة:

- أستاذ "س"، لا تُثِر لنا المتاعب. توقيعُك لمّا يجفّ حبرُه بعد. ليس يليق بهذا الرهان العظيم إلاّ قصرٌ تقضي فيه الهزيعَ الأخير من الليل، وعند الصباح يدخل القصرُ التاريخ!

وقبل أن يفكّر "سر" بالاعتراض، كان المقهى، ذو الجدران المُغشّاة بالهَباب، قد تحوّل إلى قصرٍ منيف، وجد نفسه في إحدى قاعاته الرحيبة، و "مسؤول الأمن الأدبي" يصافحه بحرارة، ويقول:

- قد حلّ منتصفُ الليل. موعدُنا مطلعُ الفجر.

وغاب عن عينيه.

* * *

أُسقِط في يد "س". قصرٌ باذخ، لعلّه من عصور القياصرة أو الأكاسرة. قناديلُ تَشِعّ ضياءً، وثريّاتٌ تتفجّر فيها الأنوار.

الورق... أين الورق يكتب فيه؟ والفكرة؟ بحسبه أن يروي ما جرى بينه وبين الرجل من حوار، بعباراته، وطروحاته، وما تضمّنه من الأهداف والمرامي.

اتّخذ مجلسه على إحدى الأرائك. لم يُحسَّ راحةً غادرها إلى القاع. قعد، تربَّع، وشرع يكتب على طريقة الأجداد. خطّ بقلمه: "بعد انصراف آخر أصدقاء الليل، وهو في المقهى ما يزال..." يصوغ ذلك ببساطة... ولكن كيف أمكن أن يتحوّل مقهىً متواضعٌ إلى قصر تصدَح فيه الفخامة، وتصرُخ الأُبّهةُ بكلّ أشكالها؟!

يتابع الكتابة.

ولكنّ الأنوار تبدو ساطعةً جدّاً، وإنها لتتزايد حدّةً حتى تكاد تُعمي بصره، فكأنها "عينُ شمس" تبهَر الحدَق. قام يتلمّس الجدران أملاً في تخفيفها، ولكنه لا يرى الجدران إلاّ مرايا تزيد في توهّج الأنوار.

من بعيد ترامت إلى سمعه أصوات. أصواتٌ مبهمة. أصاخ السمع: بدت له وكأنها لَغَطٌ بين أناسٍ يتصايحون.

الصدر مُتْرَعٌ بالأحاسيس الموّارة، والأفكار تتلاحق، والقلم في يده مرهفٌ معطاء. يريدون تحطيم السُّمعة، ويا له من هدف! يرفضون أن

تتفتّح الأزاهير في خميلة الوطن، ويا لها من حريّةٍ يدّعونها في التعبير والإبداع!

الصَّخَبُ واللَغَط يزدادان اقترابـاً، وهـو لا يتوقّف عن الكتابة، تداخلهما، الآن، أصـواتُ حيوانات يختلط فيها العواء والخُوار والزّئيـر، فكأنها سِنفونيةٌ تعزفها وحوشُ غابـة. ومـا يعرف من أين تأتيه الأصوات: أمتسللةٌ عبـر النوافذ، أم منبعثـةٌ مـن وراء الجـدران، أم متصاعدةٌ من تحت الأقدام؟

فجأةً، غاضت الأصوات وانطفأت الأنـوار، دفعةً واحدة. وفـي الظُلمـة التـي اعتنقَتْـه، والوحشة التي ألَمّتْ بـه، خُيِّـل إليـه وكـأنّ إعصاراً يطويه.

في هذه الظُلمة الظَّلماء تراءت له أشـباحٌ ذاتُ وميض، أخذت تتخايل له فـي السـكون، متحرّكةً متراقصة، لا يصدر عنها صوت، وهو يبحث، يلوب، عن ضوء، وإن خافتاً، يُتيح لـه أن يكتب أسطره الأخيرة.

لاح له، هناك، بصيصٌ من نـور. الفجـر يوشك أن يُسفِر. وعلى ضوء غَـبَش الفجـر الوليد، سطَّر آخر الكلمات.. ثمّ انفجـرت فـي أعماقه صرخةٌ مكتومة: قد كسبتُ الرهان!

* * *

تقول الحكاية أنّ الفجر طلع، وبـرز لـ "س"، فجأةً، "مسؤول الأمن الأدبي"، مادّاً نحوه ذراعه:

– هاتِ القصة، يا أستاذ "س".

– لن تحظى بها.

– تكون قد خسرتَ الرهان!

– خسرتُ رهانَك أنت.

– ولكني كسبت رهاني.

– ليس بيننا سوى رهانٍ واحد.

– كان الرهان الذي انتويتُه، أن أتخلّى لكم عن ألوفكم المسـمومة، وأُخيِّـب أملَكـم فـي خسراني السُّمعة، وأن أثبت لكم أنْ الأزاهيـر قادرةٌ على أن تتفتّح في ليلِكم الحالك، مع كـلِّ ما خطّطتم له من أنوارٍ تُعمي العيون، وأصوات تَصُمّ الآذان، وأشـباحٍ لا تُخيـف إلاّ الواجفـةَ قلوبُهم!

– ولكنّ سُمعتك الأدبيّة، يا أستاذ "س".

– سوف تتعزّز.

– في العقد الذي وقّعناه، أن تُقدِّم لنا عنـد مطلع الفجر القصة موضوع الرهان.

– سوف أُقدِّمها للنشر، فتقرؤها الجماهير العريضة... وفيها أروي كلَّ ما دار بيني وبينك من حوار، كنت أنت فيه الأعلى صوتاً، وكنـت أنا الأثبتَ جَنانا.

وقـام "س" يغـادر المكـان... ليلتقـي بالأصدقاء، حيث تفوح روائح الدخان والتنباك المعسَّل.

* * *

عبد الرؤوف دقاق معلماً وأديباً بين الصمت والبزوغ

بقلم:
مصطفى أحمد النجار

سنة حميدة تلك التي يُكرم بها الأدباء والعلماء والمفكرون والمبدعون في حياتهم قبل مماتهم، والتكريم له وجوده عديدة منها ما كان معنوياً ومنها ما كان مادياً، والأفضل أن يجتمعا معاً.

والكاتب صار في وقتنا يتطلع إلى وجود قارئ جاد لكتاباته في زمن أصبح فيه هذا القارئ الجاد بل أصبح فيه القارئ العادي عملة نادرة، وفي وجود هذا القارئ وجه من وجوه التكريم.

والصديق الأستاذ عبد الرؤوف دقاق، واحد من الرعيل الذي كانت القراءة لديهم العشق المحبب إليهم، وكان الكتاب مصدراً للثقافة والمتعة، ويعتبر الدقاق قارئاً جاداً متابعاً، بل قارئاً ممتازاً لأنه ظل على عشقه للكتاب بعد هيمنة الفضائيات الوردية وانتشارها واجتذابها لكثير من الناس ولكثير ممن كانوا يفضلون الكتاب.

ولعل البيئة التي نشأ فيها بدءاً من الأسرة إلى تلك المدارس وبخاصة دراسته في دار المعلمين بحلب التي تخرج منها عام ١٩٥٣ ومن ثم ممارسته لتدريس اللغة العربية الخالدة في مدارسها قرابة ثلاثين عاماً منذ عام ١٩٦١ إضافة إلى الجو الثقافي الذي تعج به حلب في تلك الآونة بوجود العديد من الصحف والمجلات كل ذلك ساهم في تكوين ذلك القارئ المتعطش لمناهل الأدب والثقافة وفي تكوين ذلك الكاتب.

يقول في سياق تذكره الذي نشره في صحيفة الجماهير بتاريخ ٢٠٠٥/٨/١٧:

أذكر بداياتي الثقافية: (أنا وأخي عمر وأخي فوزي) نشتري القصص البوليسية التي كانت ترافقنا في المرحلة الابتدائية حيث كانت تشدنا إلى أبطالها وأحداثها ومفاجآتها ونرقب نهاياتها مما كان سبباً رئيساً وهاماً في تكوين التخيل والتساؤل عدا عن المتعة والنشوة.

ويقول: مضت سنوات قليلة وكبرنا قليلاً في المرحلة الإعدادية فأسرعنا في قراءة كتب المنفلوطي والرافعي والزيات ومي زيادة وجبران خليل جبران وطه حسين... وكبرت معنا مكتبتنا المنزلية وهكذا شعرت بأنني أعيش حياة ثانية، لا أحلى ولا أمتع ولم يعد الكتاب يفارقني..

وأظن أن الكتاب لم يفارق عبد الرؤوف إلى هذه اللحظة وقد بلغ السبعين -أمد الله في عمره ومتعه بصحته- فأين هو من أجيالنا الجديدة.

هذه الأجيال التي أعد لها الدقاق وألف ثلاث سلاسل مطبوعة وثلاثة كتب مدرسية، وحرق أعصابه ونور عينيه لكي يمد الجسور ما بين جيل وجيل وخاطبهم وجهاً لوجه بصراحة وبوضوح فأهدى كتبه لهم ووجه خطابه الأدبي للشباب للطلبة وللشباب الأدباء وللمبدعين منهم الذين يرجو وجودهم في حياتنا العلمية والعملية، بعد أن تواصل معهم عبر التدريس ناصحاً ومرشداً وموجهاً وفي مجمل ما كتب وما قال لم ينفصل التربوي عن الكاتب في أعماقه وفي خطابه كما لم ينفصل الكاتب عن التربوي تحدوه مجموعة من القيم السامية، لأن الفرد أو المجتمع ينطلقان فيها إلى مراتب التقدم، فالمادة والروح جناحان يطير بهما وإلا حل ما حل بالمجتمعات التي تخلت عنها واكتفت بالتقدم التكنولوجي فقط.

وهذه الأخلاقية التي اتصف بها عبد الرؤوف والتي بثها هنا وهناك في ثنايا كتاباته النقدية والذاتية، جعلته يعمل بصمت بعيداً عن الأضواء وبعيداً عن التسويق الثقافي، فإباؤه أولاً، واعتداده بنفسه، وبقيمة الكاتب والأديب، ثانياً جعلاه ينتظر تقدير الآخرين ودعوة الآخرين.

هذه قناعة التزم بها، ودفع ثمنها، وشعر بمغبتها بعد تجاوز السنين.

أما السلسلة الأولى التي خص بها الفتيان فهي بعنوان (أمراء الشعر العربي) تناول فيها ستة عشر شاعراً عربياً من مختلف عصور الشعر العربي بدءاً بـ امرئ القيس وانتهاءً بـ أبي العلاء المعري كان في كل قصة حريصاً على اللغة العربية الفصيحة وسلامتها، وشرح بعض مفرداتها، وللتبسيط كان يسرد حكاية الشاعر بعناوين فرعية مستشهداً بما يناسب من شواهد شعرية مبرزاً صفات كل شاعر ومزايا شعره الفنية والمضمونية وينهي القصة بآراء نقدية، مثلاً ما قاله عن امرئ القيس: (يتحلى شعره بسحر موسيقاه الجميلة المتصاعدة من جمله وتراكيبه، لقد شغف الشاعر بالتشبه أشد الشغف ذلك المنبثق عن طبعه الفطري).

وأما السلسلة الثانية: فاشتملت على ثلاث وعشرين قصة أعدها تحت عنوان: (قصص عربية مختارة) من عناوينها: الداحس والغبراء، نهر زبيدة، ذكاء القاضي إياس، خولة بنت الأزور، زنوبيا ملكة تدمر، عمر بن الخطاب الشخصية الفذة، وكانت خطته في هذه السلسلة لا تختلف عن سابقتها فهو يغوص في بطون الكتب وينفض الغبار عن بعض الحوادث والحكايات المشوقة.

وغايته أولاً وعاشراً تقديم العظة والعبرة والدرس والأسلوب العربي الذي يأمل من الشباب الاحتذاء به، فهو يشارك في صياغة الوجدان والوعي لديهم بوضوح وبدون مواربة.

أما السلسلة الثالثة فكانت بعنوان (قصص مَن وحي الإيمان) اشتملت على ست عشرة قصة من عناوينها: القمر في القرآن، النبي موسى والملك فرعون، النبي يوسف وكيد إخواته، الأخوان قابيل وهابيل، مريم العذراء، صبر النبي أيوب...

وهذا التوجه تمثل أيضاً في غير كتاب تتصف بالمدرسية مثل: الكنز في الإنشاء والتعبير، المرشد في اللغة العربية والتعبير المثالي.

ومثلما اغترف الدقاق من التراث العربي ما اغترف، فهو غير بعيد عن منابع التراث الإنساني المعاصر، ولعله يريد أن يؤكد على ثنائية التراث والمعاصرة مثلما يؤكد على التواصل مع الأجيال... إذ حوار ولا صراع وإن أي خلل في هذه المعادلة سيؤدي إما إلى انغلاق أو إلى فوضى وتغريب وانسلاخ عن الهوية.

وماذا لو فُرض صراع وليس حواراً؟

ففي مخطوطه الذي أعده للطباعة منذ عام ٢٠٠١ والمعنون بـ (التواصل مع الأجيال) أراد المؤلف أن يؤكد على الوجه الآخر.. يؤكد على تحقيق المعادلة بين التراث والمعاصرة. فابتدأ بدراسة جادة معمقة لما سماه بالظاهرة الإبداعية وعرج إلى أزمة الأدباء والأدب وتحدث عن الأدب الروائي والقصصي وخصص عشرين صفحة عن نجيب محفوظ واعتبر هذه الفصول أو الدراسات مجالاً تنظيرياً ألحقه بتطبيق ليؤكد مرة ثانية على تحقيق التوازن وعدم التجزئة والبعثرة.

فتحت عنوان (إشراقات أدبية) أتى على عطاء وشواهد لكتاب معاصرين ولم يفرق بين كاتب معروف أو كاتب مغمور وبين جنس وآخر وبين قطر وقطر.

إنه كما أسلفت: القارئ الممتاز والمتابع حركة الصحف والمجلات مثلما يتابع حركة تأليف الكتب، من هذه الأسماء المشهورة: أحمد أمين، ماري عجمي، مي زيادة ومن المغمورين: صلاح الحزين، محمود عبد الوهاب، نفيسة الصريطي وسواهم. ثم تحت عنوان (خطرات نفس المؤلف) وضع أمام قارئه بعض خواطره التي تتصف بإنشائية جميلة محببة.

ولكي يكمل رسالته التربوية يختتم كتابه بـ أخطاء شائعة مرفقة بجداول وكلمات ومعانيها لتسهيل المهمة للأجيال الشابة، وتحبيب اللغة العربية الفصيحة وتصويبها، ووضع هؤلاء على الطريق الصحيح.

لقد سلطت الضوء على اهتمام الأستاذ عبد الرؤوف تمثل في مخاطبة الأجيال وفي مخاطبة القراء عامة من خلال هذه السلاسل ومن خلال كتبه التربوية ومن خلال مخطوطه (التواصل بين الأجيال) وها أنا أسلط الضوء على اهتمام آخر شغف به ألا وهو كتابة المذكرات والرسائل والاعترافات واليوميات فأصدر كتاباً بعنوان (مذكرات ورسائل) سبق أن قدمت له عرضاً في صحيفة الجزيرة السعودية بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٩٩ وبعد مرور سنوات اختارته الجريدة ليكون في موقعها الالكتروني مؤخراً، رصد فيه الدقاق العديد من الكتب الأجنبية المترجمة والعربية التي عنيت بهذا اللون الذي انحاز إليه بقوله: إن هذا اللون من الكتابة قد أثبت جدارته وشموخه وتفوقه على سائر الأجناس الأدبية الأخرى من قصة ورواية وشعر. (وهذا الرأي نتيجة حب شديد).

وممن تناولهم الكتاب: جان جاك روسو، وسومرست موم، وجوته ومونتاني ثم عرج إلى الكتاب العرب في الثلث الثاني من القرن العشرين بظهور العبقريات للعقاد وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، لـ محمد حسين هيكل، وعلي وبنوه لـ د.طه حسين، كما ظهرت السيرة التي كتبها ميخائيل نعيمة عن حياة جبران خليل جبران.

ويأتي على كتب الاعترافات ويشير إلى مواطن الجمال والآراء الناضجة ومنها قول نعيمة: وما نفعنا من اكتشافات الفضاء ما دامت الأرض آهلة بالشرور؟

وقوله: أما الجريمة الأفظع فهي أن تقتل الإنسان من غير أن تريق قطرة من دمه كأن تسلبه اللقمة أو تسد عليه سبل العيش وقوله أيضاً: لا غربة في الكون على الإطلاق إلا غربة الإنسان عن ربه وغربة الإنسان عن نفسه.

ويقف الدقاق أمام جولته وأمام شخصيته وأمام اعترافاته على وجه الخصوص حيث كان يدون الحوادث التي تمر به يوماً بعد يوم لكي يحاسب نفسه على ما أنجز من أعمال وهو القائل في شيخوخته: إنني أجد في ذهني أفكاراً جديدة... إنني أحتاج إلى حياة أخرى.

وأعتقد أن الواحد منَّا، من شغفهم الأدب وتيّمهم الحرف، ممن بلغوا مرحلة الشيخوخة، ومنهم الدقاق، لسان حالهم يقول: إنني أجد في ذهني أفكاراً جديدة إنني أجد في قلبي مشاعر جديدة، إنني أحتاج إلى أكثر من حياة.




نَشِيْدُ النَّصْر

عيسى بن علي جرابا

ضُـمَّ الحِجَـارَةَ واسـقِهَا مـاءَ الهُـدَى
فَبِهَـا سَتُصْـبِحُ فـوق أرضِـكَ سـيِّدا

أَحْـرِقْ وُجُـوهَ الغاصِـبينَ ولا تَـدَعْ
ابـداً عليهـا خائِنـاً أو مُلْحِـدا

لا تسـتمِعْ لِنَّـاعقينَ وسِـرْ علـى
دَرْبِ الجِهَـادِ مُكَبِّـراً ومُوحِّـدا

واثـأَرْ لِمَـنْ عَشِـقَ البُطُولَـةَ وامتطـى
إيمانَـهُ حتَّـى هـوى مُستشـهدا

واغْسِـلْ بشـلاَّلِ الـدِّمَاءِ تـراكَ مِـنْ
رجْـسِ اليَهُـودِ ورَوِّ مِنـهُ المَسْجِدا

وانسِـفْ جِبـالَ الـوَهْمِ دُكَّ حُصُـونَهُ
وبمنجَـلِ الإصـرارِ جُـزَّ الغَرقَـدا

وامسَـحْ دُمُـوعَ البائِسـينَ وقُـلْ لَهُـمْ
صَـبْراً علـى البأسـاءِ وانتظِـروا غَـدا

ضُـمَّ الحِجَـارَةَ أيُّهـا البطـلُ الـذي
مـازالَ يَـدَّرِعُ التَّقَـدُّمَ والفِـدا

واقصِـفْ بهـا بُـوقَ السَّـلامِ ومـا لَـهُ
إلاّ تشَـدُّقُهُ ولـيسَ لـه صـدى







أَغْضَـــى وقــدْ كُشِــفَ السِّــتارُ أمامَــهُ
ودَمُ الضَّــحايا لم يَبُــلَّ لهُــمْ صــدى

والأَبْرِيَـــاءُ غَـــدَوا وَقُـــودَ مَجَـــازِرٍ
شَـــنْعَاءَ تأكُـــلُ شَـــائِباً أو أَمْـــرَدا

والمَسْـــجِدُ الأقصـــى يُـــدَنَّسُ جَهْـــرَةً
والبَغْـــيُ أَرْغَـــى في حِمَـــاهُ وأزبـــدا

أيـــنَ السَّـــلامُ؟ وأيـــنَ مَـــنْ يَهْـــذي بـــهِ؟
أو مـــا رأى طِفْـــلَ الفِـــداءِ مُحَمَّـــدا؟

قـــدْ كـــانَ خَلْـــفَ أبيـــهِ يصـــرُخُ خائِفـــاً
وأبُـــوهُ يَصْـــرُخُ في الـــوَرَى مُســـتنجِدا

وعليهِمـــا صَـــبَّ العـــدُوُّ حِمامَـــهُ
حِقْـــداً يُصَـــيِّرُ كُـــلَّ رابِيـــةٍ مُـــدَى

فهـــوىَ شَـــهيداً غارِقـــاً بدِمائِـــهِ
طِفْـــلاً علـــى كَفَّـــيْ أَبِيـــهِ مُمَـــدَّدا

أيـــنَ الملايـــينُ الـــتي بِوُجومِهـــا
شَـــرِقَتْ فلـــمْ تَشْـــجُبْ ومـــا مَـــدَّتْ يـــدا؟

بـــلْ أَيْـــنَ "أمريكـــا"؟ لمـــاذا لم تُـــدِنْ
"بـــاراكَ" حـــين لـــوى السَّـــلامَ وعَرْبَـــدا؟

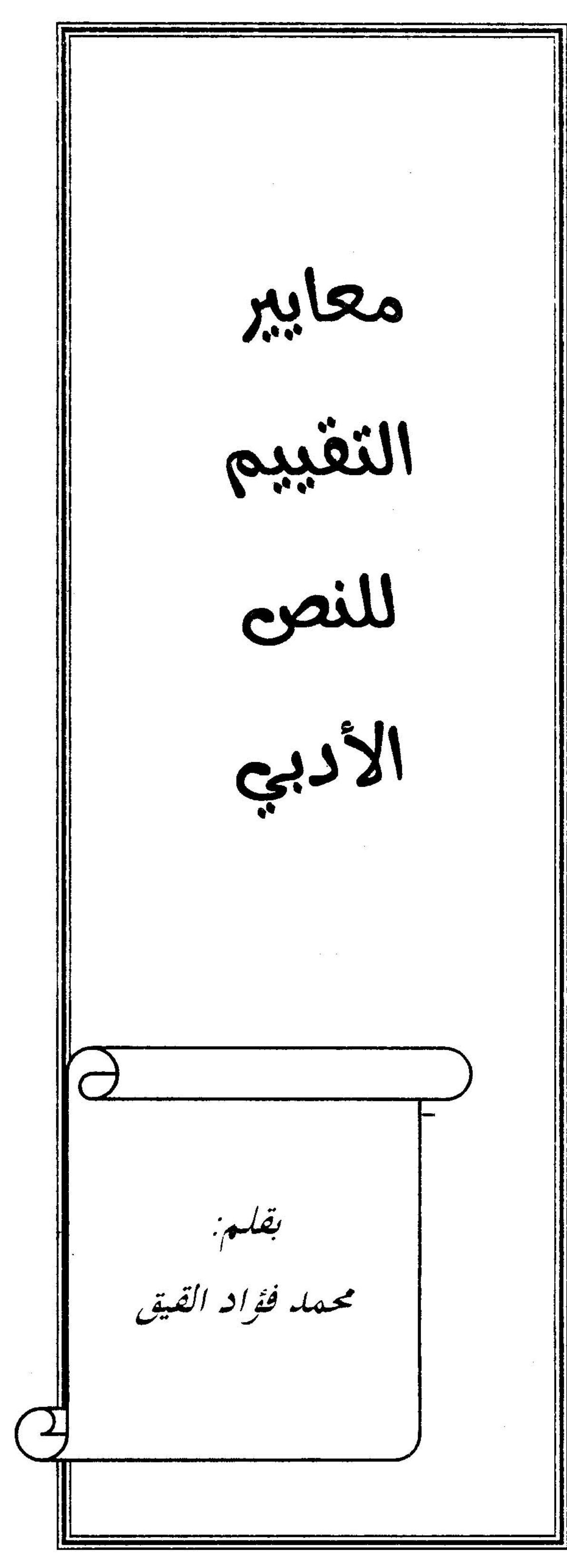
بـــلَ ايـــنَ مَجْلِـــسُ أمنِهم مِمَّـــا جـــرى
للأبريـــاءِ؟ وكيـــفَ أصـــبحَ أرمـــدا؟






وإلى متـــى نبقـــى بغَيْـــرِ إِلَهِنَـــا
مُـــتَعَلِّقِينَ وقـــد أُرِيـــقَ دمُ الهُـــدى؟
كَـــمْ صـــارِخٍ كَمُحَمَّـــدٍ وقُلُوبُنَـــا
كَسُـــيوفِنا أَمْسَـــى يُكَفِّنُهَـــا الصَّـــدا!
عَجَبـــاً بَـــني الإسْـــلامِ أُبْصِـــرُ كَثْـــرَةً
لَكِنَّهـــا في كُـــلِّ مَوقِعَـــةٍ سُـــدَى
ضُـــمِّ الحِجَـــارَةَ وانـــتَفِضْ مُتَوَثِّبـــاً
مُتَوَشِّـــحاً عَزمـــاً يَفُـــتُّ الجَلْمَـــدا
ثُـــرْ في سَـــبيلِ اللهِ ثـــورَةَ ضَـــيْغَمٍ
واصـــبِرْ وسَـــجِّلْ مِـــنْ دِمائِـــكَ مَوْعِـــدا
واطـــرُدْ مَـــنِ اغْتَصَـــبَ الثَّـــرَى وأباحَـــهُ
خَمْسِـــينَ عامـــاً واسْـــتَحَلَّ وشَـــرَّدا
قُـــلْ لليَهـــودِ بِعِـــزَّةٍ لَـــنْ أَنْحَـــني
ابـــداً ولـــو أنَّ الزَّمـــانَ تَهـــوَّدا
كَبِّـــرْ وسَـــمِّ اللهَ وارجُـــمْ واحتَسِـــبْ
واصـــمُدْ فـــإِنَّ العـــارَ ألاَّ تَصْـــمُدا!
وغَـــداً تُـــدَوِّي عَـــوْدَةُ الأقصـــى لنـــا
خَبَـــراً إذا أَمْسَـــى جِهَـــادُكَ مُبْتَـــدا!
ضُـــمَّ الحِجَـــارَةَ إنَّـــني مُتَلَهِّـــفٌ
لأرَاكَ بالنَّصْـــرِ المُـــؤَزَّرِ مُنْشِـــدا





الأدب واحة وارفة الظلال نستظلها هروبا من عتمة اللانهاية وذائقة الحياة وهو الحامل للحالة الإنسانية التي تعكس ثقافة الشعوب، وتلعب دوراً منهجياً في رفع سوية المجتمعات فكرياً ومعرفياً وسلوكيا.

واللغة هي الأداة الحقيقية للتواصل بين الأفراد، كما أنها الوعاء الذي يحتضن الفكر والعاطفة معاً.

ولم تعد اللغة قاصرة على النّحو والصرف فقط، بل هي الروضة التي يترعرع في أرجائها الأدب.

وحيث أن دراستنا تقتصر على بعض الأجناس الأدبية (شعر، قصة، رواية...)

لابد لنا من معايير تكون الرؤية فيها قادرة على تقييم النص الإبداعي ولكن هذه المعايير مجازية، تختلف عن معايير العلوم التطبيقية الثابتة، لأنها تعتمد على الحس الجمالي ودرجة الوعي والمستوى الثقافي للناقد والمتلقي على حد سواءٍ. وهناكٍ عوامل كثيرة لا مجال لذكرها تلعب دوراً فاعلاً في تشكيل الرؤية، من حيث الموروث والحداثة والإيديولوجية.

ولكن السؤال هنا ما هي المعايير التي تبنى عليها منهجية التقييم.

بداية يجب أن نبحث عن الكاتب الحقيقي للنص

فالمبدع هو شخص اعتباري لنصه. أما الكاتب الحقيقي فهو صاحب الامتياز للنص، ويتأتى من مجموعة سمات تدعى منظومة الإنجاز الإبداعي.

هذه المنظومة تصب في دائرة التفكير أثناء انبثاق الحالة الإبداعية.

وقد يقول قائل إن الدفقة الإبداعية قد تأتي فجأة ولا تتفاعل مع المنظومة، أقول له نعم ولكن هذه الدفقة قد تشكلت سابقا في اللاوعي وهي تنتظر المحرض الذي يشعلها فقط.

ويجب علينا التميز بين تشكل الموضوع داخل النص وبين أن يكتب الموضوع هذا النص وهناك فرق واسع بين الحالتين.

فالحالة الأولى تعتمد على المنظومة أثناء تدفق الحالة الإبداعية لتولد إبداعاً حقيقياً ونصاً متميزاً

أما الحالة الثانية فيتولى فيها الموضوع كتابة النص ويتمركز في واحة التفكير متمردا على طاقة التفكير والمنظومة وكذلك داخل النص يجذب إليه كل مقوماته دون حوامل ثقافية ودون التفاعل مع الترف اللغوي مما يجعل النص يتكئ على السياق السردي الذي يتسع أفقياً ويؤدي ذلك إلى ترهل في النص وفقدان قيمته الإبداعية.

والسؤال ما هي منظومة الإنجاز الإبداعي وما هي الأدوار التي تؤديها في تكوين نص ذي سوية جمالية وإبداعية. ان منظومة الإنجاز هي عبارة عن مجموعة من العوامل التي تتفاعل فيما بينها داخلياً كمرحلة أولى وهي(الذكاء - المعرفة - التفكير - الفلسفة - التخيل - اللغة - اللاوعي - إدارة البناء- كيمياء الدماغ....).

ولا مجال هنا لشرح آلية التفاعل بين مكونات المنظومة والحالة الإبداعية ولكن سأستعرض بشكل موجز جداً تأثير كل عامل على تشكيل النص وعلى سبيل المثال:

المعرفة : هي الرافد الأول لتكوين الحراك الأساسي للنص أي إظهار الإضاءات التي يعكسها موشور المعرفة في كافة لاتجاهات.

الثقافة : هي المرجعية القادرة على توظيف الموضوع من خلال حامل فكري وسلوكي للخروج بالنص بحامل ثقافي جديد على اعتبار أن الثقافة هي مشروع حياة.

الفلسفة: هي التي تجعل ذاتية الموضوع ذا قدرة على تكوين بنية متكاملة الجمال تجعل النص ذا توهج إبداعي.

التخيل واللغة واللاوعي : هي الأدوات التي تخدم الموضوع لتبني النسق النصي بصورة متكاملة.

الذكاء وكيمياء الدماغ : هما العاملان المنتجان لآلية الدلالات والدوران في تفعيل النص بمعطيات الذاكرة إبداعيا.

إدارة البناء: هي المنظم لمنطقية النص من خلال التلاحم

والتفاعل لمنظومة الإنجاز على أسس خلق الانطباع المنهجي فيه.

وبالمجمل يصب كل ما سبق في تشكيل نص متكامل الأبعاد يكون على اتساق كامل بالموضوع ومحمولاً على آليات السرد الوظيفي وقدرته على بناء إشكالية المعنى من خلال تكوين حواريه داخلية تعتمد على الحامل اللغوي ما تجعلنا غير قادرين على الدوران مع المنحني الدائري للمعنى وإعادة القراءة غير مرة.

إن الناقد أو المتلقي يستطيع إسقاط منظومة الإنجاز على قراءة صفحة أو عدة صفحات ليبني من خلالها رؤية واضحة في تقييم النص مهما كان الموضوع.

ولكن يظل الموضوع مهماً والأهم تفاعل الموضوع مع المنجز من المنظومة ضمن أفق إبداعي قابل للتقييم.

ودائماً النص الجيد يبعث بداخلنا دهشة مستمرة بداية من الومضة الأولى إلى نهاية النص، ويحرك لدنيا التفكر ومكامن المتعة ويزيد في ثقافتنا، وهذا يعود إلى ملكة المنظومة لدى المبدع، أما النص الذي يتكئ على الموضوع فقط يبقى على الورق ويشكل بداخل الآخر ضائقة الملل مهما كان الموضوع مهماً.

وأخيراً أعتقد أن دور الناقد مهم جدا لاكتشاف منجزات النص حسب تلك المنظومة، ومن حيث النقلة الثقافية وفلسفة الإبداع بشقيها النصي والنقدي. ولامانع أن يعرج على المكونات الفنية والبنائية للنص ليشكل لنا في النهاية الجدوى المنطقية والموضوعية في تقييم النص ووضعه بالخانة التي يستحقها.

خاتمة الشعراء

بقلم:
نظير جابر

يحضرني الآن الشاعر امرؤ القيس ومن المعروف أنه كان خليعاً ماجناً وكان والده حِجْر ملكاً على بني كِندة فتآمروا عليه وقلتوه. وجاء خادمه ليخبر ابنه بقتله وكان في مجلس شراب مع بعض الحسان فقال كلمته المشهورة: "اليوم خمر وغداً أمر"، وبعد التفكير خطر له أن يستنجدَ بقيصر ملك الروم فاصطحب معه صاحبه واتّجها شمالاً وفي الطريق عانى الرجلان الكثير من التعب والشدَّة وفي ذلك يقول:

بَكى صاحبي لمَّا رأى الدربَ دونهُ
وأيقن أنّا لاحقانِ بقيصرا
فقلت له: لا تبكِ عينك إنما
نحاول مُلْكاً أو نموتَ فنعذرا

ويذكر في قصيدته حوران وحماة وشيزر. إلى أن وصل إلى بلاد الروم وطلب من القيصر النجدة. ومنّاه القيصر ووعده إلى أن وشى به أحد رجال القيصر بأنه كان يغازل أختَ القيصر. فقدّم القيصر هدية لامرئ القيس وهي قميص مسموم من الداخل وطلب منه أن يسبقه بينما يجهِّز جيشاً ويلحق به. وفي الطريق لبسَ امرؤ القيس القميص وتحلل السُّمُ على جسده فمات قبل أن يصل إلى بلده.

وفي ذلك يقول أحد المسؤولين السوريين في القرن الماضي: "امرؤ القيس أول خائن في العرب".

ننقل خطوة أخرى إلى الشاعر الأعشى الملقب (صنّاجة العرب) ومن المعروف عنه أنه كان كثير التزلّف والرّياء وأنه مدّاحة نوّاحة كما يقال، وقد عاش حتى السنة السابعة للهجرة وهو من اليمامة وقد سمع عن الرسول الكريم ﷺ فأحبّ أن يتقرب منه ويمدحه لكي ينال جائزته. وفي الطريق إليه التقاه بعض المشركين فأغووه وقدموا له هدية هي عبارة عن مئة ناقة فعاد فرِحاً دون أن يصل لمقابلة الرسول ﷺ وأثناء عودته كان يركب على ظهر ناقة فجفلت ووقع عن ظهرها ودُقّت عنقه.

وسنقفز قفزة طويلة إلى أن نصل إلى ابن الرومي، ويقال إنه كان شديد الحذر ويخشى من قطع نهر دجلة بالسفينة ويخاف من كل شيء إلى أن أتى يوم كان يرتّب مكتبتَه الضخمة فقلبت عليه ومات تحت ثقل وطأتها دون أن ينجده أحد.

ولا يخفى علينا النهاية المحزنة للشاعر بشار بن بُردْ وكيف قتل مظلوماً.

أما المتنبي (مالئ الدنيا وشاغل الناس) فقد عاش في بلاد سيف الدولة الحمداني معزّزاً مكرّماً إلى أن وشى به خصومه الشعراء فغادر حلب إلى كافور الإخشيدي في مصر وكان كافور يَعِدُه بولاية وينال مدائحه إلى أن أتى اليوم الذي ملّ فيه من الوعود فغادر مصر عائداً إلى بلده تاركاً قصيدته التي مطلعها:

عيدٌ بأي حالٍ عدتَ يا عيدُ ... لما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبة فالبيداء دونهمُ ... يا ليتَ دونك بيداً دونها بيدُ

وفي الطريق التقاه بعض أعدائه فأرادوا قتله وهرب منهم لينجوَ بنفسه فقال له غلامه: ألست القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

فقال له المتنبي: قتلتني قاتلك الله ثم عاد وقاتل حتى قتل.

أما فارس الشعراء أبو فراس الحمداني فقد سجن في بلاد الروم سبع سنوات عجاف، وبعد أن دفع الفدية عنه ابن عمه سيف الدولة الحمداني فُكّ أمره وعاد إلى بلده، وعندما مات سيف الدولة أراد أن يستلم الإمارة إلاّ أنه طورد وحصلت معركة بين الطرفين في بادية حمص وقُتِل.

وسنتجاوز العهود الماضية لنصل إلى عصرنا..

فالكثير يعرف ماذا حدث لسيد شعراء العصر المرحوم بدوي الجبل حيث اختطفوه وحملوه إلى ضفة بردى وأخذوا يضربونه حتى ظنوا أنه مات وتركوه وحينئذٍ لجأ أبناؤه إلى أحد المسؤولين رحمة الله عليه وكان آنذاك وزيراً للدفاع فاتصل بالجناة وعرف موضعه فجلبه أبناؤه وعاش بعدها حياة زهد وتقشّف إلى أن وافته المنيّة.

ولا يغيب عن بالي المرحوم الشاعر محمد عمران فقد شغل مناصب عالية في وزارة الثقافة وفي اتحاد الكتاب العرب وكان من روّاد النهضة الحديثة في الشعر العربي وعُرِف بباعه الطويل في هذا المجال إلى أن داهمه مرض خبيث وأرسل إلى الخارج لمداواته ورغم العناية الشديدة به داخل القطر وخارجه فقد انطبق عليه قول الشاعر:

ومن كانت منيتُه بأرض
فليس يموت في أرض سواها

حيث تُوفِّيَ وهو في أوج عطائه.

أما صديقي وحبيبي الشاعر نديم محمد فقد تجسَّدَ فيه الفقر والبؤس والشِّدَة، كان يقيم في طرطوس وكانت تقيم معه امرأة لم يسجّلها عليه ولم تنجب وكان يسمّيها (العنزة). ماتت قبله وبقي وحيداً يعاني من مرارة الغربة في الحياة وكنتُ أتردّد عليه وأزوره أحياناً. وفي إحدى المرّات قرعت جرس الباب فقام بتثاقل وصعوبة وفتح الباب. ولن أنسى كلمته آنذاك: "لقد مضى أسبوع دون أن يطرق هذا الباب أحد" وكان يصحبني ولدي الطبيب المقيم في ألمانيا وعندما عرف أنه طبيب أحضر مجموعة كبيرة من الصور الشعاعية وقال: "لقد أجريت إحدى عشرة عملية جراحية (فتح بطن) وأخذا يستعرضان هذه الصور.

وفي زيارة أخرى أخذ يقرأ لي شعر باللغة المحكية وكان بارعاً جدّاً في هذا النوع من الشعر بالإضافة إلى براعته التي لا تبارى في الشعر الفصيح.

وفي آخر أيامه نقله ابن أخيه غسان من طرطوس إلى بيته في قضاء جبلة وهناك لقي ربه وهو يتحسّر لأنه لم يتمكن من طباعة دواوينه. إلى أن قيض الله له وزير الثقافة آنذاك الأستاذ محمد سلمان فكلّف ابن أخيه في جمع مآثره وطبعها في خمسة مجلدات.

ومما يلفت النظر أن ابن أخيه لم يجمع من شعر عمه إلاّ ما كتبه باللغة الفصحى وأهمل شعره باللغة المحكية رغم أنها لا تقلّ أهمية من حيث الصّور الرائعة والألفاظ السلسة والأسلوب الجذاب عن شعره باللغة الفصحى.

((فاعتبروا يا أولى الألباب))!.

قراءةٌ لرواية

ابنة البخيل

لبلزاك

بقلم:
نادر عبد الكريم حقاني

الملخص

يحاول هذا البحث تقديم قراءةٍ لروَاية "ابنة البخيل" للكاتب الفرنسي "بلزاك"، إذ تمثّل الرواية واقعيّة الكاتب وفلسفته التي أخرجها بقالبٍ فنّيٍ مميّز.

وقد انحصرت القراءة في الحديث عن بلزاك وحياته وآثاره، وعرض روايته، وإبراز مقولتها وشخصيّاتها وتحليل شخصيّة البخيل وابنته من خلال الأحداث التي مرّت بها هاتان الشخصيتان كما أبرز وعي بلزاك للمتلقّي من خلال فكره وأسلوبه وهدفه الرواية منتهياً بالنتائج التي توصلت إليها هذه القراءة.

١ً- بلزاك – حياته، آثاره

جفته أمّه منذ طفولته، وكان أبوه موظّفاً شيخاً غريب الأطوار، ولد ١٧٩٩، وقد ألحقته أمّه بالمدرسة الابتدائية سنة ١٨٠٧ "فندوم" الداخلية، وفي هذه المدرسة يكتب "بحثاً في الإدارة" يضبطه معه بعض مدرسية فيصادره، رأى هذا الصبي في المدرسة عالماً صغيراً مشيّداً على أسسٍ من الفوارق الجائرة يسوده سلطان المال عالماً يحارب الفضل والامتياز، ويناصر السواد الأعظم.

وبعد سنّ الرابعة عشر التحق بمدرسة "بليسيه"، ثم أرسله أبوه إلى باريس، كان ممتازاً في مادة الإنشاء ومضى بعدها إلى السوربون ليسمع محاضرات "جيزو" و"فيكتور

كوزان"، فيلتقط مذكّرات فلسفية، ويكتب بحثاً في خلود النفس، وبسبب إقتار والديه عليه يتّهمهما بالبخل والتقتير، ويقرر في نفسه أن يفتح معاقل الثراء والجاه والمتعة إن حصل على المال، ويحال والده إلى المعاش سنة ١٨١٩، ويخسر ما أودع من ماله في المشروعات التجارية، فيقرّر الهجرة إلى الريف، ويخبر ابنه "بلزاك" بالموضوع، وقد رسم له أقصر سبيل إلى وظيفة "موثق العقود"، ولكن بلزاك يريد أن يكون شاعراً، وعندما حاول في المسرح وأخفق، يكتب قصّةً لجمهور القرّاء " الأخطاء الفلسفية".

في العشرين من عمره عندما أتمّ دراساته العالية في القانون، أراد له أبواه العمل في المحاماة لكنّه أبى إلاّ أن يتفرّغ للشعر والتأليف، وانطلق مغادراً قريته إلى باريس، ليقيم في غرفةٍ صغيرةٍ متواضعة، وأخذ يقضي نهاره في الدرس والبحث والطواف في العاصمة الكبيرة، ثم يعود إلى غرفته في المساء فيعد طعامه بنفسه، ويمضي ساعات في الكتابة على ضوء شمعه أو مصباح صغير.

ولم تلق مسرحيته الأولى "كروموبل" ما كان يرجو من نجاح، وكذلك رواياته الشعرية والنثرية الأخرى التي ألّفها في ذلك الحين، ومن بينها: " القرصان" و"القديس لويس"، و "روبيردي تورماندي"، و"سيللا"، فاضطر للعودة إلى باريس إذ عجز عن تدبير أمر معيشته بنفسه بعد أن انقطعت الإعانة المالية.

ويعود إلى باريس مرةً أخرى ليكتب عدة روايات بأسماء مستعارة، ثم عمل في الصحافة، وكتب فصولاً مختلفة في الأدب والفنّ والتاريخ والعلوم النفسية والتجارة والصناعة وغيرها، ونُشرت له سلسلةٌ من الروايات البوليسيّة وقصص المغامرات والأقاصيص الصغيرة بلغ عددها حوالي الأربعين.

عرف قلبه الحب غير مرة لكنه لم يوفّق في حبّه، بقي يكتب لأخته "لور" ليبثها معاناته، وسوء معاملة الآخرين له، وأخذ صديقه ينشر مؤلفاته، ومنذ ذلك الحين أخذ الصعود في سلم الشهرة، حتى توفي سنة ١٨٥٠.

من رواياته: "المهزلة البشرية"، و"الحياة العائلية"، و"الحياة الباريسية"، و"الحياة العسكرية"، و"البائع المتجوّل"، و"المجرم النبيل"، و"بدء الحياة".

في عام ١٩٥٠ احتفلت فرنسا بذكرى مرور مئة عام على وفاة بلزاك، وأجمع النقّاد والفنيون في العالم كلّه على أن إنتاجه الفكري الغزير خليقٌ به أن يجعله في عداد عباقرة المفكّرين والكتّاب في العالم، وما تزال مسرحيّاته تعرض في فرنسا، كما أن كتبه ترجمت إلى أكثر اللغات الحيّة، ومن إحصاء الحكومة الفرنسية أنّ مؤلّفاته ظلّت أوسع المؤلفات انتشاراً حتى قبل الحرب الثانية.

٢ً – عرض رواية "ابنة البخيل"

يقدّم بلزاك في روايته هذه صورةً من العادات القبيحة تجاه إنسانية الإنسان، في بلدة سومور الفرنسيّة إنّه يقدّم صورة البخيل الذي ليس همّه سوى جمع المال، والتلذذ بالنظر إليه، وهو في المنظار الاجتماعي إنسانٌ مبجّلٌ وهو ليس كذلك في واقع أمره، لما يضيّق على أسرته من نفقات، ولمنزله الرتيب الذي أكل الدهر عليه وشرب، وتجري أحداث الرواية في بلدة سومور أيام مصادرة الجمهورية الفرنسية لأملاك الكنيسة، "ومسيو جراندية" هذا يتزوّج وهو في الأربعين من عمره، وينجب فتاةً، ويعامل زوجته بقسوةٍ إذ لم يكن يعطيها أكثر من ست فرنكات عندما يبيع محصولة، وتكبر الفتاة، وتتجه الأنظار نحوها لا لجمالها بل للمال الذي سترثه من والدها.

إذ توجد عائلتان طامعتان بها عائلة "دي جراسان" التي تطمع في تزويج ابنها "أدولف من" أوجين" وعائلة "آل كرشو" وابنها "دي بونغون" الذي يطمع بالزواج من "أوجين" أيضاً، وأثناء حضور العائلتين عيد ميلاد "أوجين" يحضر ابن عمها "شارل"، وكان والده قد أرسله إلى "جرانديه" من أجل أن يعيش هناك لكي يخفي عن "شارل" حقيقة خساراته الكثيرة في باريس، وفي ذلك اللقاء تعجب "أوجين" بابن عمها، وتقوم بإعداد الغرفة التي سيستريح بها من عناء سفرة، "شارل" يتفاجأ بهذا المنزل المتواضع الذي يسكنه أغنى تاجرٍ في سومور، ويلعن الساعة التي حضر فيها إلى سومور إنه يشعر بالضيق، ولكنّه يخفي مشاعره، وبعد أيّامٍ تأتي رسالة من والده يقرأها عمه، وكانت هذه الرسالة صاعقةً على الفتى لأنّ والده، كان قد قتل نفسه، ويقرّر "جرانديه" توصيل ابن أخيه إلى الهند، ويفكّر بمصارحته بخبر مقتل والده، دون مراعاة مشاعره.

وعندما يعود من عمله يرى ابن أخيه مع أسرته، فيطلبه للحديث منفرداً، ويخبره بالفاجعة، وأنّه لم يعد يملك شيئاً دون أي اعتبار لما سيحصل له.

ينهار "شارل" بالبكاء، وتشفق "أوجين" وخادمتها وأمها على "شارل" الذي يتمنع عن تناول الطعام، ولكن عمه لا يعرف كيف يتخلّص منه؟ وعندما تعلم "أوجين" بضائقته المالية تحاول تقديم المساعدة له من خلال ما قدّم لها من هدايا في عيد ميلادها، وترجوه أن يقبل فيأخذ منها المبلغ،ويقدّم لها الصندوق التذكاري الذي أعطته إياه والدته ويطلب منها المحافظة عليه.

وقبيل سفر شارل يُظهر له عمّه الاهتمام، من خلال الأسئلة الدائمة، والنصائح غير المنقطعة، وعندما تأتي الأيام الأخيرة لكي يرحل، يقابل "شارل" أوجين" ويطبع على وجهها قبلة الوداع، وينطلق إلى بلاد الهند، وتمر السنون وتفقد "أوجين" والدها ووالدتها، وتبقى مع خادمتها، ويعود "شارل" إلى باريس

دون إرسال خبر عودته إلى ابنه عمّه، وبعد فترة من الزمن يتعرّف إلى ابنةٍ من عائلةٍ حاكمةٍ في فرنسا، ويطمع بالزواج منها، فيرسل إلى ابنة عمه رسالةً، تقرأ "أوجين" الرسالة، ولا تصدق أن "شارل" يتخلّى عنها بهذه السهولة، تضيق الدنيا بها، فيرى قسٌّ حالتها فيخبرها أن الزواج هو الحياة والدير هو الموت، وتختار القاضي زوجاً لها، وعلى الرغم من خيانة ابن عمها لها، لكنها عندما علمت بأن زواجه متوقّفٌ على تسديد الديون لأصحابها أرسلت القاضي إلى باريس ليلتقي بابن عمها ويدفع الدين، وبالفعل كان ذلك، وتسير أحداث الرواية إلى نهايتها بزواج أوجين" من القاضي، ولكن القاضي كتب في سك الزواج إن الممانعة الزوجية من أحد الطرفين تؤدي لانتقال الثروة للطرف الآخر، ولا زالت "أوجين" متعلقة بابن عمها ممّا جعل الناس يلومونها، وتبقى "أوجين" تتبّرع بالصّدقات للمؤسسات والفقراء، وفي النهاية تعود إلى منزل والدها العتيق، ويتهمها الناس بالبخل، وهي عنه بعيدة تنفق أموالها على المشافي والمؤسسات إنها امرأة تعيش في هذا العالم ولكنّها ليست منه.

٣ً- مقولة العمل

هذه الرواية من الكوميديا الإنسانية التي وضعها بلزاك في عدّة روايات اختار لكلّ منها جانباً من النقص الإنساني ومهزلة الطبائع البشرية، وجعله موضوعاً لروايته يصوّر فيه النقص، ويبرز مساوئه، ومبلغ جنايته على الفرد و المجتمع، وقد تناول في "ابنة البخيل غريزة البخل، وكيف تتمكّن من صاحبها، فتتغلّب على غرائز الخير فيه وعلى كلّ عاطفة من عواطفه الكريمة حتّى عاطفة الأبوة، وصوّر هذه الغريزة في أعنف وأغرب صورها. وقدّم البخيل في صورته البشعة، وكما هو في حياته الدنيئة مع نفسه، ومع أهله، ومع الناس، وأرانا إلى جانب ذلك صورة أخرى من النقص الإنساني هي صورة الطمع الماكر في ابنة البخيل، وكيف تعيش موضع ملاحقة متواصلة من المعجبين بجمالها والطامعين في ثرائها لا في محاسنها وبهائها، فلا تعرف لها محباً مخلصاً أو زوجاً وفيّاً لتتمثل مأساتها المروعة في عبارتها الأخيرة التي تنطق بها في مرارة مخاطبةً خادمتها: "ليس في الدنيا مَنْ يحبني حقّاً يا نانون".

وبلزاك في روايته هذه صاحب رسالة اجتماعيةٍ لإصلاح الفرد والمجتمع، وتقويم غرائز الإنسان والسمو به إلى حياة أسعد وأرقى، فقد نظر إلى مجتمعه فرأى الهوة العميقة بين الطبقة العليا وطبقة البسطاء؛ ورأى حبس المال والتمتّع به لدى الطبقة العليا على حين أنّ بقية الفئات الاجتماعية تحيا شَظف العيش وفاقة الحرمان، فأراد من روايته هذه "ابنة البخيل" اقتداء الآخرين "بأوجين" الوارثة لأبيها "جرانديه" فهي نقيض لأبيها.

لأنّه حبس المال وهي كانت تنفقه بعد موته لذلك يريد بلزاك الاقتداء بها ليعم العدل بين الفئات الاجتماعية.

٤ً- شخصيات الرواية

أ - عرض الشخصيات:

مسيو جرانديه: صانع براميلٍ فرنسيُ الأصل في الستين من عمره، جمع ثروةً كبيرة، واقتنى مزارع وبساتين للنبيذ لكنّه شديد البخل والتقصير لا همّ له إلاّ جمع الذهب والفضة وكنزهما.

أوجين: الابنة الوحيدة لجرانديه الثري العجوز، في العشرين من عمرها ذات جمال طبيعي، وتعيش مع والديها عيشه الريفيّات البسيطات.

شارل جرانديه: ابن أخ لجرانديه يدعى فيكتور انج وليم جرانديه، نشأ الابن في باريس حيث كان أبوه من نوّابها، ورجال الأعمال فيها، ثمّ أفلس، وشبّ الابن لا يعرف إلاّ التأنّق واللهو.

نانون: خادمة أسرة جرانديه الريفيّة جاوزت الأربعين، وما زالت قويّة البنية شديدة الإخلاص لمخدوميها رغم دمامتها.

دي جراسان: مالي كبير يعيش وزوجته بإقليم سومور جيراناً وأصدقاء لأسرة جرانديه، ويطمعان في تزويج ابنهما "أدولف" من ابنته.

كروشو: مسجّل عقود في إقليم سومور وصديقٌ حميمٌ لجرانديه.

الأب كروشو: عميد آل كروشو وكاهن الإقليم.

دي بونغون: قاض شاب من آل كروشو يطمع كذلك في الزواج من أوجين وارثة الثري العجوز البخيل.

دوبريون: نبيل باريس مقرّبٌ من الملك شارل العاشر أضاع بإسرافه ما كان لزوجته من ضِياعٍ في جزر الهند الغربية، ولهما ابنه دميمة الخلقة أغريا "شارل جرانديه" بالزواج منها.

ب - تحليل شخصيتي "جرانديه" وابنته "أوجين":

١ً- مسيو جرانديه:

"كان مسيو جرانديه عريض المنكبين يزيد طول قامته على خمس أقدام، نحيل الساقين، بارز الركبتين ذا وجه صوّحته الشمس، وشوّهته آثار الجدري، وذقنٍ، مدبّب، وأسنانٍ ناصعة البياض، وعينين تنطويان على نظرة الجشع المتحجّرة، وشعرٍ كان يوماً في لون الرمل، فأمسى في لون الرماد"!.

إنّ بلزاك يقدّم صورةً لذلك العجوز، وكأنّه يريد إثارة السخرية والضحك على نفسيّة القارئ لهذه الخلقة التي تشكّل بها هذا الإنسان.

وللمسيو جرانديه شعورٌ تجاه المرأة، فهو إن التقى بها، كان بارد اللهجة، وكأنّه لا يريد أن يخسر ضحكةً أو ابتسامةً في وجهها إنّه لا يريد تكليف نفسه بشيء من هذا القبيل نتيجة

بخله، لأنه لو ابتسم في وجهها لفسح لها مجالاً للحديث معه، وعندها ستكون جريئة معه، فتتطلب منه شراء حاجات لها، وهو لا يريد أن يخسر ماله إنّه حريص أشدّ الحرص على عدم إضاعة المال.

كان حريصاً على الربح، فهو إن قدّم مالاً للمحتاجين لم يقدّمه صدقةً، بل كان يأخذ فائدة عليه تجاوز ١١%، هذه الفائدة تدلّ على مدى حبّه للمال وخشيته من فقدانه.

إنّه شخصيّة تتصف بالحزم والاستبداد إذ يعامل زوجته بقسوة، فلم يكن يعطيها أكثر من ست فرنكات، بعد أن يطالب مشتري النبيذ بمبلغٍ زائد من أجل زوجته، ولشدّة بخله يقول لزوجته:"هل عندك بضعة فرنكات تقرضيني إيّاها"، ومن صور استبداده أنّه أثناء وجود ابن أخيه في منزله كانت الأسرة قد أعدّت وجبةً من الطعام لشارل، وكان "جرانديه" خارج المنزل، وعندما عاد أسرعت أوجين لإخفاء السكر من المائدة، هذا الفعل الذي قامت به ابنته يدّل على تحكّمه بمقدرات المنزل، وحتّى لقمة الطعام، إنّه حريصٌ داخل المنزل وخارجه، والمال يجب أن يبقى وافراً، ويزداد باستمرار، كي تكتحل عيناه ومن مظاهر بخله عدم رغبته بشراء ثياب الحداد بعد موت أخيه حيث طلبت منه زوجته ذلك فيخاطبها: "إنّ الحزن في القلب وليس في الثياب.

"ويتجرّد جرانديه من كل المشاعر الإنسانية عند محنة ابن أخيه حيث طلبت ابنته منه مساعدة ابن أخيه فيغضب "جرانديه" ويقول لها: "منذ أن دخل شارل البيت وبدأتم تتطلبون" إنّه يقوم بحساباته دوماً، فهو يكره وجود ابن أخيه لأنّ هذا الوجود سيفتح أعين أسرته، وستكثر طلباتهم.

٢ - أوجين "ابنة البخيل":

هي الشخصيّة الأساسيّة في هذه الرواية لأنّ الأعين تلاحقها، ويتسابق الشبّان للتقرّب منها لا لجمالها بل لمالها، وقد رسم صورتها بلزاك فقال: "كان رأسها كبيراً للغاية، وجبهتها الدقيقة الشبيهة بجبهة الرجال تذكّر بصورة الإله "جوبيتر"، وكلّ إشراق حياتها النقيّة يبدأ وكأنه ينبع من عينيها الصافيتين الغبراوين... وكانت قد أصيبت بالجدري إصابةً خفيفة لم تخلّف آثاراً تذكر في وجهها البيضاوي أو قسماتها سوى تأثيرها في لون البشرة الذي أزال صفاءه، وغضّ من نضارته ونعومته، فخلّفة خشناً إلى حدٍّ ما... ربّما كان أنفها أكبر من المعتاد قليلاً، ولكن ليس إلى الحد الذي يتعارض مع تعبير الفم العاطفي الرقيق والشفتين الحمراوين الدقيقتين!، هذه الصورة التي قدّم من خلالها "بلزاك" "أوجين" هي صورةٌ مرسومةٌ بريشة الفنّان الذي يضفي من مشاعره على اللوحة الفنيّة أشياء لا يدركها الإنسان العادي، حتّى أنّ الفتاة بهيئتها الخارجيّة لترتسم في ذهن المتلقّي.

و"أوجين" هذه الفتاة مستسلمةٌ لأبيها، فكل فعلٍ تقوم به لابدّ من أن يكون قد حظي بموافقة

والدها فأثناء إقامة حفلة عيد ميلادها قدّم لها "أودلف دي جراسان" مديةً، فتوقفت قليلاً ناظرة إلى والدها الذي أشار برأسه إشارةً تدلّ على موافقة قبول "أوجين" هذه الهديّة.

وهي بريئةٌ وبراءتها هذه ترتبط بعدم حبّها للمال الذي لم تكن تشتهيه، ولم تكن تحتقره، كما أنّ هذه البراءة جعلت الأنظار موجهةً نحوها طمعاً في مالها لأن مجاملةً من أحد الحضور لابدّ من أن تترك أثراً في نفسيتها فتقع "أوجين" فريسة مَنْ جاملها، وقد عبّر بلزاك عن ذلك إذ قال: "كانت الفتاة نفسها أشبه بطائرٍ نادرٍ يتسابق الصيّادون إلى الظفر به، وهكذا وجدت نفسها مطاردةً بمزاعم الصداقة والحبّ من جانب كلّ الحاضرين الطامعين في مالها وحده".

ووجود ابن عمّها في حفلة ميلادها كان الكفيل بتغيير مجرى حياتها لإعجابها به إذ أسرعت لإعداد غرفةٍ يرتاح بها، وكانت قد قضت حياتها في إصلاح الجوارب، وما شعرت به في تلك اللحظات لم تكن تشعر به طوال حياتها السابقة يقول بلزاك: "كانت الأفكار التي تواردت على ذهنها في تلك الدّقائق تفوق كلّ ما مرّ بها طيلة السنوات التي انقضت منذ جاءت إلى هذا العالم"؛ هذا القول يدلّ على الكبت الذي كانت تعيشه الفتاة لذلك، فإن دخول "شارل" إلى حياتها بدّل من طبيعتها "كانت تنهض كعادة الفتيات الريفيّات، ولكنّها في يوم لقاء شارل كانت قد استيقظت قبل عادتها، واعتنت بزينتها... ولأول مرة في حياتها ودّت لو تكون جميله"، إنها شعرت بحاجتها إلى الجمال كي تلفت انتباه ابن عمها فينجذب إليها.

وإذا كان والدها قد سيطر على تصرفاتها، فإنّها وللمرّة الأولى تشعر بالضيق تجاهه، لأنّ خادمتها قالت لها إنّ صناعة الكعك لا يرضى عنها والدك، لذلك انتابها شعور بالحيرة والقلق، وبانعدام الراحة في منزلها.

ولحدث الحب المنبثق عن شخصيّة "شارل" أثرٌ في ازدياد حبّها له لذلك أرادت تخليص "شارل" من المحنة التي حلّت به، فقدّمت له المال الذي كانت تحتفظ به، وقد جمعته خلال سنوات حياته.

ويزداد إخلاصها "لشارل"، وذلك ساعة الفراق، إذ شعرت بالضيق، وعندما رحل ظلّت مواظبةً على الكنيسة تجلس تحت شجرة الجوز تفتح الصندوق صباح مساء، هي مستعدة للموت من أجله. كما أنّ إخلاصها جعلها ترفض إعطاء صندوق الذهب لأبيها هذا الصندوق الذي أهداها إياه "شارل"، وقد فضّلت حجز حريتها وعيشة الخبز والماء على إعطائه الصندوق، وعلى الرغم من قطع "شارل" علاقته معها، عندما تعرّف إلى فتاة من باريس بقيت وفيّةً له، وقدّمت له مساعدةً لإيفاء الديون التي كانت مهر زواجه من تلك الفتاة، كانت قد وقفت وقفةً مع ذاتها وتذكّرت كلام والدتها "كانت أمي على حقّ الحياة قصّة عذاب وموت".

وتختار القاضي زوجاً لها وتخبره بماضيها، ظلّت وفية لحبّها الأول، وتتزوج من القاضي الذي عيّن نائباً لسومور وتوفي بعد تعيينه بثمانية أيّام، وتعود إلى منزلها القديم يتّهمها الناس بالبخل وهي ليست كذلك، تنفق على المشافي والمؤسسات إنها امرأةٌ تعيش في هذا العالم لكنّها ليست منه.

٥ً – التوصيل

هذه الرواية هي عمل فني موجةٌ للقارئ، ولكن هل استطاع بلزاك إيصال لجمهوره؟ وكيف تمّ ذلك؟

لاشك في أنّ بلزاك كان موفّقاً إلى حدٍّ كبير في توصيل أفكاره للقارئ لأنّه كان يضفي من فلسفته على الرواية من خلال تلك التعليقات التي كانت تعقب الحوار أحياناً والتصوير أحياناً أخرى.

كالتعليق الذي أدلى به بعد تعريفه بجرانديه حيث قال: "والإنسان الشحيح تنمّ عنه نظراته كما تنمّ نظرات المقامر أو زير النساء عن دائه المتأصّل!، وهناك نوعٌ من التفاهم بلغةٍ خفيّة بين عبيد الشهوات جميعاً، وهو تفاهمٌ لا يصل غيرهم إلى حلّ رموزه الغامضة".

وتعليقه على شخصيّة "أوجيِن" إن النساء في الأقاليم بحكم الاحتشام والرصانة المفروضة عليهن يضعن كلّ همهن في نظراتهن التي يطلقن فيها عواطفهن المكبوتة من عقالها، فتتسم بفصاحة شائعة، ولهفةٍ شبيهة بلهفة رجال الدين الذين تعتبر كلّ متعة بالنسبة لهم محرّمةً أو مسروقةً"، فبلزاك محلّل نفساني وليس كاتباً فقط فهو يعي ما يدور حوله من أمور ترتبط بطبيعة الحياة في المجتمع الفرنسي.

وفي سياق آخر يوضّح بلزاك موقفه من البخلاء عند تعليقه على موقف "جرانديه" من مساعدة ابنته لابن أخيه "شارل" إذ يقول: "إنّ البخلاء أمثاله لا يؤمنون عادةً بحياة أخرى، فالحاضر عندهم هو كلّ شيء، والمال في عصرنا الحاضر هو محور القوانين السياسية والاجتماعية، وجميع الدساتير والنظريات والمعاملات تُعلّم على إضعاف الإيمان بالحياة الأخرى التي كانت الأساس لصرح المجتمع طيلة القرون العديدة الماضية، ولقد أوشك الموت أن يفقد رهبته في نظرنا، ولم يعد يهمنا أمر المستقبل البعيد الذي ينتظرنا بعد الموت، فصار يتملكّنا جميعاً أملٌ واحدٌ أو مطمعٌ هو أن نتمتع بما في الفردوس الأرضي من الترف والبذخ والغرور، وأن نميت الروح من أجل ذلك في حين كان الناس في الماضي يحرصون على بلوغ الفردوس الخالد الموعود، والتضحية في سبيله بكلّ شيءٍ في حياتهم الدنيا هذا الخاطر يقرأ الآن بسهولة على جبين كلّ إنسان، وهو مطبوعٌ على عصرنا الذي يسأل المشرّع الذي يصدر القوانين ماذا تدفع بدلاً من أن يسأله ماذا ترى"!، إنها دعوةٌ إصلاحيةٌ يطلقها بلزاك، وكأنّه ينقم على ما آلت

إليه حالة الإنسان مستفيداً بذلك من المتصوفة والرهبان أولَم يكن يحضر في صغره لأساتذة السوربون الذين كانوا يلقون محاضراتٍ عن التصوف والفلسفة، وأعتقد أن ما أدلى به بلزاك في هذا السياق مرتبطٌ بالفكر الإسلامي، ولا عجب في ذلك لأنّ هذا الدين كان منتشراً في أوربة.

وتعليقات بلزاك لم تكن سبباً في توصيل أفكاره فقط بل إن قوّة التصوير لعبت الدور الأكبر في جذب القارئ فيما أعتقد كالتي جاء بها أثناء حديثه عن التشابه بين بداية الحب وبداية الحياة إذ يقول: "فكما يلذ الطفل أن يرى الابتسامات، ويسمع أغاني المهد والقصص الخرافية التي تزيّن له مستقبلاً ذهبيّاً كذلك العاشق تبسط فوق رأسه دائماً أجنحة الأمل البرّاقة، ويذرف كلّ حينٍ دموع الفرح أو الأسى، ويجمع أزهار الحياة في أفق حياته بمثل السرعة التي يبدّدها وينساها" فهذا التصوير المعنوي من شأنه جذب القارئ لأنّه يصوّر براءة الحب.

كما أنّ الأسلوب الساخر لعب دوراً في إيصال الرواية للقارئ لأنّ السخرية من شأنها إثارة الضحك في نفسيّته وإبعاد الملل عنه، كالتي وردت في التعريف بجرانديه: "ولم يكن المسيو جرانديه يشتري اللحم أو الخبز" وفي قوله لزوجته: " هل عندك بضعة فرنكات تقرضيني إياها"، هذه السخرية الموجودة في سياق الرواية تلعب دوراً هاماً في إيصال الفكرة للقارئ، كما ترفع من قيمة الرواية إلى مرتبة متقدّمة في التعبير الفنّي، وترجع الرغبة في السخرية من الغير إلى استعداد الفنان المزاجي الذي يكون ذهنه مهيأً للتعريض بالغير والسخرية من الناس".

وغاية بلزاك من هذه الرواية إصلاح المجتمع، وإثبات مقدرته الأسلوبية، فقد عاش في مجتمعٍ قائمٍ على الفوارق الطبقيّة، ينظر إلى الحياة بمنظار مادي لذلك أراد بلزاك العودة بالمجتمع إلى طبيعته الروحانية من خلال عرض نموذج البخيل، ومن خلال التعليقات التي أدلى بها في ثنايا الرواية.

٦- النتائج التي توصّلت إليها القراءة

في هذه القراءة للرواية يتبيّن لي أنّ بلزاك كاتبٌ إنساني من الطراز الأول لما حوته روايته، من سردٍ محكمٍ وأحداثٍ مثيرةٍ، وعواطف تجذب القارئ، وتعليقات تحمل الطابع الفلسفي أراد من خلالها الكاتب توصيل أفكاره للآخرين، ويبقى بلزاك أحد أعلام الرواية الفرنسيّة لفكره وآرائه ذات الطابع الإنساني السامي.

وروايته هذه تدخل في مضمار الأدب الهادف لواقعيتها من جهة، ولجماليّة التصوير الفنّي الملازم لأحداثها وشخصيّاتها من جهة أخرى.




ثلاث مقطوعات للإنسان

محمد منذر لطفي

دنيا جديدة

من رأى الأشجار - في عنفي - يعريها الخريف؟
يا لهولِ الفعلِ..! ما أقسى الذي يجني الخريف!
ويمرُّ الثلجُ في عرسٍ شتائيّ.. أنيق
ينثر الأحلامَ في الدربِ العتيقْ
يفرش الساحة ماساً.. ولآلْ
يحملُ الفرحة للأزهار شالْ
يغمرُ البستانَ.. والكرمَ.. وأشجارَ الحديقةْ
فيغطُّ الكونُ في نومٍ خرافيٍ.. عميقْ
فإذا هلَّ الربيعُ الطلقُ.. خفاقَ الجناحْ
تغزلُ الأغصانُ أنغاماً.. وحُبّاً.. وأقاحْ
إنني ذاكَ الخريفْ
يا صديقةْ..!
إنني ذاكَ الخريفْ
إنني الآن أُعرِّي كُلَّ أفكاري العتيقةْ
إنني أبحثُ عن فصل ربيع.. يا صديقةْ
إنني أبحثُ عن دنيا جديدةْ
تحملُ الفرحة.. والرؤيا السعيدةْ
تنشرُ الحبَّ على كلِّ الخليقةْ
إنني أبحثُ عن تلك الحقيقةْ
يا صديقةْ..!







الإنسان.. وأبعاد الخطيئة

يا "الآدمْ"!

إنَّه أوَّل إنسان مشى درب الخطيئةْ

فسرتْ في نَسْغهمْ..

في نسغِ أجيالٍ رديئةْ

يا "لَحوَّاءَ" الجريئةْ..!

جرَّعته السحرَ.. فانفضَّ إلى الخلْدِ يغامرْ

وهي في روعتها.. قنديلُ طيبٍ.. ومجامرْ

إنها أغرتْه بالسرِّ.. وليليِّ الضفائرْ

نفحتهُ الحبَّ صبحاً.. ومساءْ

أطفأت فيه مصابيحَ الضياءْ

فعصى الله.. وولَّى يقطِفُ النبتَ الحرامْ

وهو في داخله يعرف أبعادَ المطافْ

هبطَ الأرضَ.. وعافْ

جنَّةً.. أنهارها راحٌ.. ورَوْحٌ.. وظلالْ

رفلتْ بالحبِّ.. والأطيابِ.. والسِّحرِ الحلالْ

ومن الوِلدانِ والحورِ.. قناديلَ مضيئةْ







يا "لَحوّاءَ" الجريئةْ..!

إنها ميلادُ تاريخ الخطيئةْ

إنها بعْضُكَ يا "آدمُ".. يا بدءَ الخليقةْ

وأنا.. نسْلُكما.. قصّةُ أفكارٍ طليقةْ

إنني إنسانُ هذا العصرِ.. إنسانُ الفضاءْ

قد محوتُ الفِكَرَ السوداءَ من أعماقِ ذاتي

وركِبتُ الريحَ..

فالمجهولُ بعضٌ من حياتي

لن أعيشَ اليومَ في حضنِ الخطيئةْ

لن أرى الشيطانَ يغْري الخلقَ..

يدعو الناسَ للأخذِ بآلاف التعاليم الرديئةْ

بل سأمحو من دروبِ الكونِ ألوانَ الخطيئةْ

ليطوفَ النورُ في ليلِ الشتاءْ

لأرى الإنسانَ أضحى اليومَ إنسانَ الضياءْ

ليعمَّ الأرضَ زيتونٌ.. وقمحٌ.. وإخاءْ

وصباحٌ.. دُفِنتْ فيه متاهاتُ المساءْ

وُلِدَتْ فيه النواميسُ المضيئةْ

صُلِبتْ في لونه الناصعِ أبعادُ الخطيئةْ

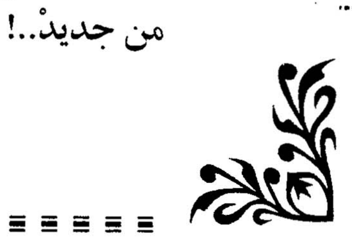


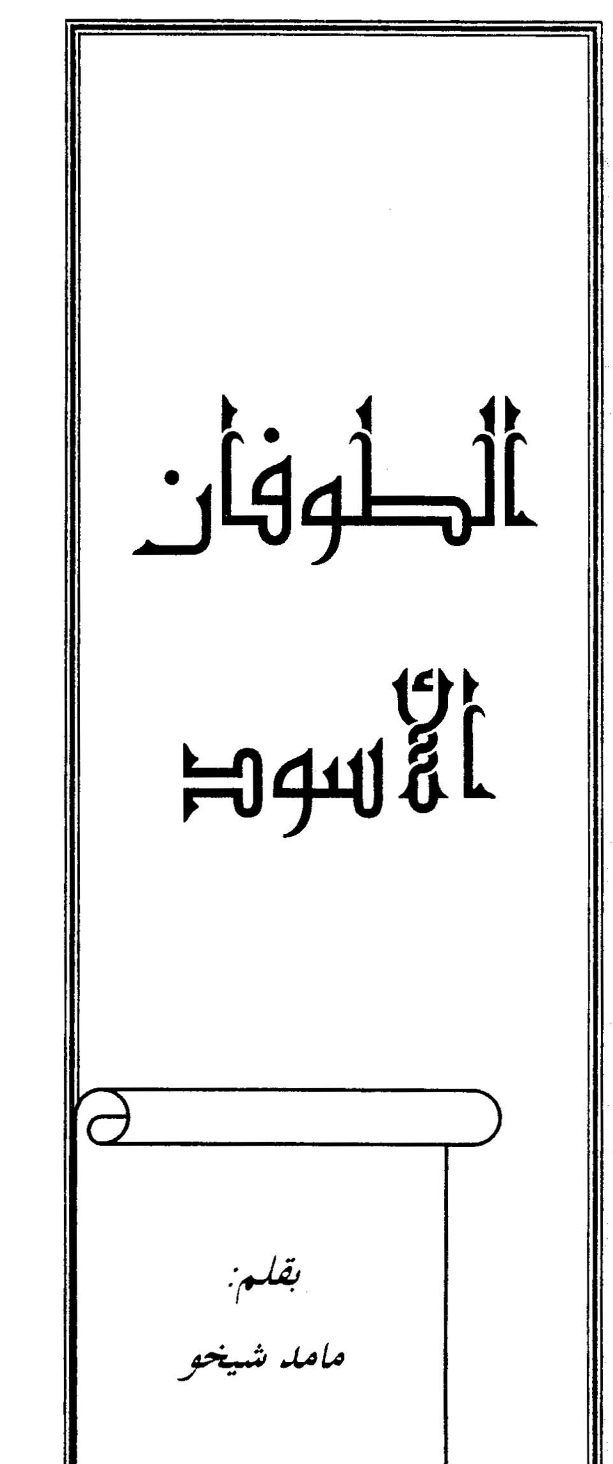




ما بعد الطوفان الجديد

وقديماً.. حدثَ الطُوفان في وادي "الفراتْ"
إنَّه طوفان "نوحْ"
فأماتَ الحَرْثَ.. والنَّسلَ.. وألوانَ الحياةْ
أتُرانا سوف نلقى من قريبٍ.. أو بعيدْ
مصرعَ الإنسانِ..؟ لكنْ أينَ "نوحُ" من جديدْ؟
علَّهُ - إن وَلْوَلَتْ ذاتَ مساءْ
فوق سطحِ الأرضِ آلافُ الشياطين الحَبيسةْ
واختفتْ كُلُّ علاماتْ الحياةْ
وتجلّى شبحَ الإنسانِ والنِّسيانِ من بحرِ العدمْ
ومضتْ تورقُ في صمت عميقٍ.. كلُّ أشجارِ النَّدمْ
وانتهى الطوفانُ..
فالأرضُ.. وما فوق ثرى الأرض.. مَواتْ
وبُحيراتُ رمادٍ.. ودخانٍ.. ورُفات..!
يولدُ "المُنْقِذُ" من ليل النهاياتِ.. ومن بحرِ المَماتْ!
يتحدَّى العدمَ الموحشَ.. يطوي الموتَ..
يأتي بالحياةْ..!
يُفرغُ القاربَ إنساناً.ز وطيراً.. ونباتْ!
أمْ تُرى لن تشهد الشطآنُ ميلاَ "رسولٍ" من جديدْ!
أم تُرى لن تشهد الأرضُ. ولا الأبحُرُ..
ميلاداً.. "لنوحٍ"..
من جديدْ..!



لم تشرق الشمس منذ أيام طويلة، وكأنها غادرت هذه السموات التي لم تعد فيها سوى سحب فاحمة ترشق وجه الأرض مطراً أسود يصبغ كل الأشياء باللون القاتم.

هذا المطر القاتل للزرع والثمر، وحتى للأعشاب الملتصقة بالصخور، ينهمر منذ أيام لذا انتشرت في أزقة القرية المتعرجة رائحة العفونة، ورائحة روث البقر، وبعر الماعز، لتطغى على رائحة البشر.

أقفرت الحقول والدروب، من الناس، ولاذت الحشرات بشقوقها، ولم تعد تسمع زقزقة عصفور أو صدى ضحكة تخرج من إحدى زوايا القرية.

الكل قلق على مصير بذاره في جوف الأرض، أو ثمار أشجاره التي انتظرها مدى عام، وبهائمه التي قارب علفها على النفاد.

في كل صباح يستيقظ العجائز على أمل أن تكون السماء قد ابتسمت لهم أخيراً، لكن سرعان ما يشيحون بوجوههم، ويعقدون ما بين حواجبهم، فيختفي الأمل.

كان القرويون البسطاء ينتظرون بعيون غائبة في الحزن إلى مصير قريتهم (أم صخر)، وهي تتهاوى في الهلاك، وكانت قد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مكانها المتموضع أسفل صخرة كبيرة على منحدر بين جبلين، لقد فقدت ثوبها الأخضر، وإطلالتها الجميلة وتقلقل نبض الحياة شيئاً فشيئاً في أوردتها، راح القلق ينخر عقول أهلها بشدة:

- إلى متى؟

والآخر يقول بحسرة:

- حتى مياه النبعة تلوثت.. إنها نهايتنا!

ويتابع الذي بجانبه دون أن يرفع بصره:
- يبدو أنها نهاية سوداء.
لكن (أبو طلحت) هو أشد المغتاظين لأنه أكثرهم أملاكاً، لذا فهو يطلب حلاً سريعاً، ولا يهمه إن كانت معجزة، لتنتشل أملاكه من الضياع، أما الحاج (أبو ياسين) الذي كان يحاور المختار مباشرة لأنه اعتاد الجلوس على يمينه دائماً لكبر سنه فقد كان يقول:
- إنها مصيبة حلت على رؤوسنا يا مختار، ففي كل يوم يزداد الأمر سوءاً، وأيامنا باتت على وتيرة واحدة، تبعث الهم والأسى والقلق من القادم، بصراحة فقدنا الأمل.
هنا همهم الجميع:
- فقدنا الأمل!! نعم..
بهكذا كلمات كانوا يصوّرون عجزهم ومأساتهم كل مرة في مضافة المختار (أبو أيوب) تحت تهديد المطر المستمر الذي ينقر على النوافذ ينذر، ويتوعد، والمختار يرفع رأسه بين الفينة والأخرى ليقول:
- حسبنا الله ونعم الوكيل!
والأمور مختلطة في رأسه.
وفي كل مرة أيضاً، كانت تنشب مشادّات، ملاسنات، ونقاشات حادة، تكاد تتطور إلى تماسك بالأيدي، بين الشيخ عبد الجليل إمام مسجد القرية وجماعته، وبين الأستاذ نادر، معلم أولاد القرية الوحيد وجماعته من الشبان المتحمسين لأفكار الكتب، التي يأتي بها الأستاذ من المدينة.
كان الشيخ يجزم بأن هذا المطر القاتل هو لعنة من السماء، أما الأستاذ فهو يصرُّ على أنه تلوث بيئي، ومن هذين المنطلقين، كانت تمتد وتتفرع حوارات ساخنة، وكل متحدث من الطرفين كان يُرغي، ويُزبد، وهو يدافع عن مبدئه، وحدقتا عينيه تتوسعان، والشرر يتطاير منهما، والقرويون صامتون، يأملون من كل هذا خيراً مفضياً إلى حل.
ذات صباح استيقظوا على صوت بكاء، ونواح يصدر من أحد بيوت القرية، فهرعوا مستطلعين. كان الصوت ينبعث من بيت (أبو إبراهيم) وزوجته تضع رأس ابنها (سليمان) ذي السنوات العشر على ركبتها، وتبكي، والطفل يئن ويصارع آلامه و(أبو إبراهيم) يجلس على عتبة بيته يمتص سيجارته، وينفث دخانها بمرارة، محملقاً إلى السماء، وكأنه يحاورها، وعند الظهيرة كان الطفل يحتضر على الرغم من كل محاولات الإنقاذ.
فتح الطفل عينيه، ونظر إلى أمه، حاول أن يقول شيئاً، لكن خيطاً من الدم تدفق من فمه، وانطفأت عيناه، وسكنت أطرافه، ومات.
علا نواح الأم، وبكى أبوه، والغضب يخنقه، وهو يلعن المطر الأسود، الذي اصطحب معه الجوع والوباء، وسلبه فلذة كبده.
بعدها كثرت اجتماعات أعيان القرية، وازدادت الخسائر، كما ازدادت الملاسنات، والمشاحنات بين الشيخ (عبد الجليل)، والأستاذ (نادر)، بل قيل إن شاباً من جماعة الأستاذ قد حاول شد لحية الشيخ والنيل من هيبتها لولا تدخل المختار، والآخرين، فطرده الأستاذ لأنه على حسب رأيه خرج عن سلوكهم الذي يدعو إلى الحوار.
جرى كل هذا على مرمى نظر (أبو إبراهيم) الذي لم يتمالك نفسه، فإذا به يقفز

كالملدوغ ويركض نحو الباب، وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة. وما هي إلاّ لحظات حتى جاءهم خبر عن نيته الرحيل عن القرية.

وبالفعل عند وصولهم إلى بيته كان الرجل وأبناؤه ينقلون الأثاث خارجاً وعلى الفور تدخل المختار:

– إلى أين يا (أبو إبراهيم)؟

– إلى حيث لا يوجد هذا المطر.. ولا الشيخ ولا الأستاذ!

قال ذلك وهو يتابع حمل الأثاث. ثم تابع دون أن يكلّف نفسه الاستماع لأي كلام:

– تباً للقيل والقال.. تباً للكتب والشعارات.

ثم توقف وكأنه وجد الكلمات المناسبة التي يودّ قولها:

– تباً للنظريات والمبادئ، يا أخي هاتوا حلاً، ثم قولوا ما يحلو لكم، نحن لا نفقه شيئاً مما تتفوهون به، ولكن كنّا نأمل خيراً، أما الآن فأنا لست مستعداً لأخسر المزيد من أفراد أسرتي، سوف أرحل تاركاً لكم كل القرية.

وبعد وعود من المختار، وحلف الأيمان، عدل عن رأيه، شرط أن يفيها المختار في أقرب وقت.

ومنذ ذلك اليوم، ظهرت جماعة جديدة في القرية يترأسها (أبو إبراهيم) شعارها "إما الحلول السريعة، وإما الرحيل عن القرية".

لكن النزاعات بقيت على حالها في المضافة، سوى أن كل فريق يحاول أن يكسب (أبو إبراهيم) إلى صفه.

وفي أحد الصباحات بينما القرية تستيقظ وهي ماتزال تترنح تحت غطائها الأسود، والموت يلفها من كل جانب، ارتفع صراخ أحدهم من الجهة العلوية من صوب الجبال، وهو يدخل أزقة القرية، فبرزت الرؤوس من الأبواب هنا وهناك، ونبح كلب، وصدر من إحدى الحظائر خوار بقرة تحتضر، والصوت يقترب مفجوعاً يصرخ بجنون:

– يا أهالي القرية.. يا مختار.. إنه الموت.. استيقظوا!

جفلت أرواحهم، ركضوا إليه بينما كان الراعي النحيل متوجهاً إلى المختار:

– إنها نهايتنا.. الموت خلفي تماماً.

أحاطوا به أمام بيت المختار، وكان قلبه يغلي، ونفسه تفيض بالذعر، والكلمات تقف في حلقه، والزبد يتطاير من فمه، اجتاز المختار الواقفين بخطوات سريعة، وانتصب أمام الراعي يتأرجح:

– هدئ من روعك يا بني، وحدثنا عن هذا الموت الجديد الذي تصطحب أخباره معك.

لكن الشاب كانت ماتزال أحشاؤه تتلوى من هول ما رآه، وقسمات وجهه لا تُفسر تحت الصبغة السوداء، يبدو أنه قد بقِي تحت المطر طويلاً.

صمت الجميع وساد السكون قليلاً، اللهم إلاّ لهاث الراعي (هوشان) وصوت المطر الذي يرتطم بالأرض.

كانت قلوب القرويين قد بلغت حناجرهم، وأجسادهم ترتعش، وكأنها تعلن عدم احتمالها المزيد.

مزق صوت المختار السكون:

– تكلم.. هات ما عندك.

وبدأ (هوشان) الكلام:

- يا مختار إنه الموت عينه، بشرفي الموت الأكيد، يجب أن نرحل، أن نترك هذه القرية الملعونة، وإلاّ أصبحت قبراً جماعياً يبتلعنا جميعاً.

أخذ نفساً عميقاً، واستدار نحو القرويين:

- الصخرة.. الصخرة الكبيرة، تلك التي هناك بين الجبلين.

وأشار بيده نحو الهناك، فاقشعرت الأبدان، وطارت الأبصار نحو الجبلين، فوقهم، وكاد (هوشان) ينفجر بالبكاء، ليعبر بالدموع عمّا شاهده:

- الصخرة.. إنها تحبس وراءها بحيرة عظيمة من المياه، بشرفي إنها لن تقاوم دفعها لو استمر سقوط الأمطار أكثر، لأني كنت هناك، وسمعت بأذني قرقعتها، وهي تتقهقر.

سقط على الأرض وكأنه يقول بذلك "إنني بلغت وعليكم العمل"

توقفت القلوب عن الخفقان، والحناجر عن الكلام، والأجساد تسمّرت وفارقتها الحركة، ونهضت في العيون صورة قرية جائعة متفسخة يلتهمها طوفان أسود، يسحقها بلا رحمة.

وعلى الفور خرَّ الشيخ (عبد الجليل) ساجداً يبكي، ويرفع يديه إلى السماء:

- العناية.. العناية.. إننا ضعفاء.

لكنها لطخت وجهه بالصبغة السوداء، جلس المختار القرفصاء ممسكاً رأسه براحتيه، يحوقل في خيوط المياه وهي تنساب بين الوحول صامتاً، واستند العجوز (أبو ياسين) على جدار المضافة، كانت أسنانه تصطك، وشفتاه ترتجفان، وأنفاسه متقطعة، يبدو عليه أنه يقاوم كي يظل واقفاً.

واحتارت نظرات القرويين بين الصخرة، وبين الأعيان، وخلف صفوف الرجال كادت النساء يغشى عليهن، والأطفال يتعلقون بأطراف أثوابهن، ازداد نحيب الشيخ، وعلا نشيجه، وراح يمرّغ وجهه بالوحل، انتفخت عروق رقبته، وصاح في الجميع:

- اسجدوا أيها العصاة، أقسم إنها لعنة، حلّت عليكم عقاباً لكم.

وتمرّغ الجميع بالطين، وكل منهم يعدد في سره أخطاءه، ويعتقد أنه هو المسؤول عمّا يحلّ بالقرية. وتدخل الأستاذ من جديد:

- أيها الجاهل أنت تسلّمهم قرابين للموت، ألا تخجل من نفسك، إن الآن وقت العمل. هيا أيها الأخوة، لندعّم الصخرة، ونرمّم شقوقها، ونفتح لها مسارب من الجانب الآخر.

أعجب القرويون بهذا الرأي، فنهضوا.

عندما شاهد الشيخ ذلك، حشد جماعته مرة أخرى، وبدأ يدافع عن موقفه بحزم، واندلع النزاع مجدداً، وراحوا يتراشقون النعوت والشتائم، ولكن هذه المرّة لم يكتف (أبو إبراهيم) بالمشاهدة والمراقبة عن بعد. بل انقض عليهم مع جماعته، واشتعل العراك، وراحت الهراوات الغليظة، ترتفع وتنزل، والمختار مايزال يتنهد:

- حسبنا الله ونعم الوكيل!

لكن ذلك لم يدم طويلاً، فلقد سمع الجميع دوي انفجار كبير من الجهة العلوية من صوب الجبال.





إلى تتيانا

فراس ديري

أضــنيتِ قلــبي يــومَ قلــتِ وداعــاً

مــا عــدتُ أصْـغي أو أطيــقُ سماعــا

"تَتيــــانَ" إنَّ مشـــاعري شـــرقيةُ

مــا كــانَ حُــبي في الفِــراقِ مَتاعــا

ســارتْ معــي والليــلُ أغمــضَ جفنَــهُ

والــثلجُ قــد فــرشَ الثــرى وتَــداعى

والـــبردُ كـــان عبـــاءَةً لجراحِنـــا

مَـــنْ ذا يُضـــمِّدُ حُبَّنَـــا الملْتاعـــا؟!

قالــت وقالــت.. والــدموعُ فضــاؤها

وأنـــا المُتـــيَّمُ خلــفَ نَجْــمٍ ضَــاعا

وبــدأتُ أرسـمُ في الغيــومِ حكــايتي

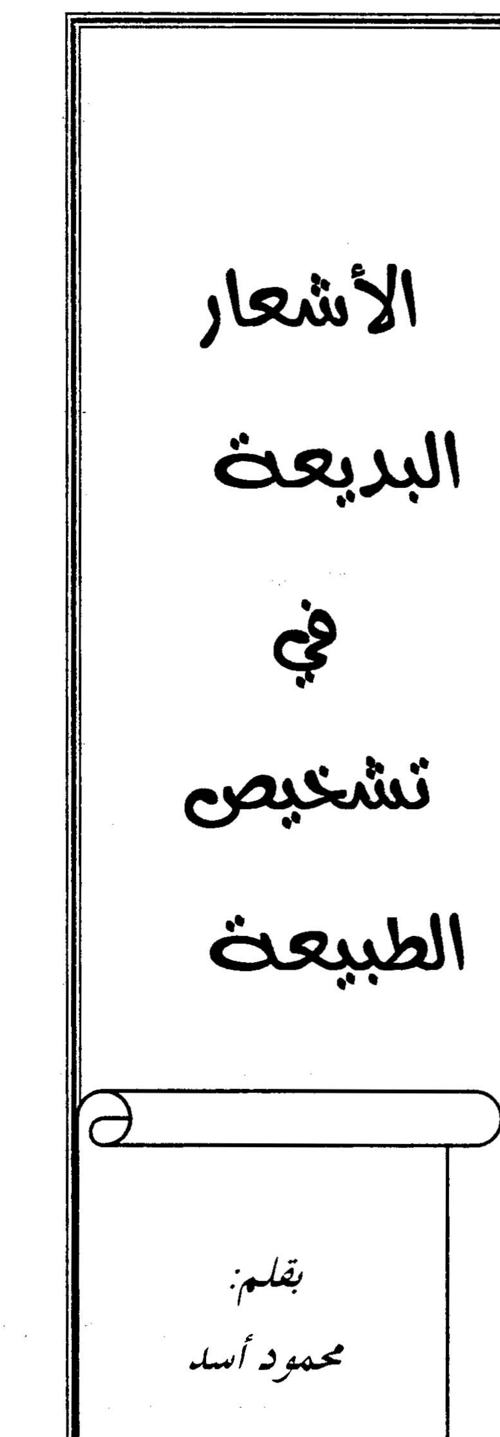
وغمســـتُ في دمــعِ الفــؤادِ يراعــا

أســلمتُ لليــلِ الشــجي عــواطفي

ونصــبتُ في البحــرِ المهــيجِ شِــراعا







الأشعار البديعة في تشخيص الطبيعة

بقلم: محمود أسد

علاقة الإنسان مع الطبيعة وطيدة الصلة بالحياة والجمالِ وبحبِّ البقاء. فالطبيعة تحضن أشواقه، وتثير نوازعه. يراها في حزنه وفرحه، وفي مسار حياته صغيراً وكبيراً. هذه العلاقة تقوى وتشتدُّ مع تعلُّق الإنسان بالحياة والاستمرار، لأنَّ الإنسان عنصرٌ فعَّال في مفردات هذه الطبيعة، وما هذه الطبيعة إلا تثبيت لوجود الإنسان الذي يتنفَّس منها ويشرب وينهل ويتنقَّل ويستقرُّ. تعطيه أكثر ممَّا يعطيها، قرأها جاهلاً ومتعلِّماً، تأمّلها في هدوئها ونزقها وغضبها، فلم تنقطع العلاقة والصلة بينهما، ولذلك لا غرابة إن وَجدْنا فيها عالماً إنسانيّاً رحباً وغنيّاً، فيه الجمال والهدوء وفيه الضجرُ والثورة وفيه الفرح والسرور...

منذ القديم ألبس الشعراء الطبيعة رداءً إنسانياً، استمعوا إليها، وحاوروها وأنصتوا إليها بحوارهم وأفكارهم، بثّوها لواعج نفوسهم فـ (امرؤ القيس) شخّص الليل و(ابن خفّاجة) شخّص الجبل وِ (البحتري) شخّص الربيع و(المعرِّي) شخّص الليل، وغيرهم كثيرون.

وتشخيص الشعراء للطبيعة ينطوي على إحساسٍ إنسانيٍّ مفعم بالحبِّ، وقريب من المشهدِ بكلِّ مشاعره، وهذا ما يجعل الطّبيعةَ إنساناً وبالمقابل نجدُ الطبيعة بهذا الإنسان، هذا الالتحامُ العضوي لا يأتي بعيداً عن مقوِّماته المتعدِّدة والأساسية.

فهناك الاستعداد النفسي، والتكوين الاجتماعي والمحيط الجغرافي وعوامل أخرى. فإذا قرأت نصّاً في الوصف رأيت الشاعر، وإذا نظرت إلى مكوّنات الشاعر تخيّلْتَ لوحةً من لوحات الحياة الطبيعية. والديوان الدمشقي حافل بهذا الجانب الفني البديع الذي يجعل

القصيدة العربية ترتدي ثوب الفن والنبل معاً. ترتقي فيه القصيدة التي تحمل البعد الإنساني، نراها تعكس قسوة الحياة إلى جانب رخائها ورقّتها... ولن أكثر من ذكر هذه الحالات بل سأكتفي بالأهم والأجمل والأقدر على التعبير فالشيخ (برهان الدين القيراطي) يقدّم لنا لوحةً رائعةً حافلةً بنوازع الحياة: ص ٢٨

وَشَدَتْ على العيدانِ وُرقٌ أطربت
بغنائها من غابَ عنه المطربُ
فالوُرق تشدو والنسيمُ مُشَبِّبٌ
والنهر يسقي والحدائق تشربُ

فالماء والأغصان والطيور والنسائم كلّها تشكّل لوحةً إنسانيةً حافلةً بالسعادة وما فيها من غناء وطرب وتشبيب وسعادة.وهذه لوحة بديعة من لوحات الطبيعة في تداخل أحوالها، وتغيُّرها يقدّمها لنا الشاعر (ابن الساعاتي) وكأنَّنا شهودٌ نتجاوَبُ مع كلِّ حركة وكلِّ صوت: ص ٧٨

بَلَدٌ حسنُهُ يفقِّهُ من كا
ن بليداً حتى يفوق لبيدا
دبَّجَتْها كفُّ الربيع كأنْ شقّ
تْ عليها مطارفاً وبرودا
وصفاحُ الغدران سُنَّتْ دروعاً
جَعَّدتها أيدي الصِّبا تجعيدا
ثمَّ ألقَتْ سلاحها السُّحْبُ فالأ
يامُ بيضٌ من بعد ما كنَّ سودا
وأكفُّ الرياضِ تجلو من النر
جسِ والوردِ أعيناً وخدودا
كلَّ غصنٍ لَدْنِ القوامِ مجود
تحت شادٍ يلقي الغناء مجيداً

فالطباع الإنسانية نسبغها على عناصر الطبيعة، وعناصر الطبيعة تثير فينا ما فيها من جمالٍ باهرٍ وحزن فاتر... وهذا الجانب الحزين يعكسه الشاعر (ابنِ الساعاتي) ص٥٢

واهاً لسفحِ دمشقَ حيث تناوَحَتْ
كُثْبانُهُ، وترنَّحَتْ باناتُهْ
هو موقفُ الشكوى الذي لولاه ما
فتكتْ بغُلْبِ أسودِهِ ظبياتُهْ

والجانب المفرح الذي يبعث السرور والبهجة فينعكس على القصيدة ومكوِّناتها فنراه في قصيدة (ابن النقيب) الذي حرّك ما في نفسه عن طريق الطبيعة ص ١٤٢

باللهِ يا ريحَ الجنائب شارفي
تلكَ الغصونَ وجاذبيها المئزرا
واستعطفي قُضُبَ الأراك وغازلي
زَهْرَ الرياضِ مُورَّدًا ومكفَّرا
واستعطفي جَفْنَ البهارةِ زاهياً
وترشّفي ثَغْرَ الأقاحِ مؤشّرا

وللشاعر (ابن النقيب) ملكة وقدرة على خطابِ الطبيعة واستنطاقها بما يجول في نفسه فيقولُ في وصف متنزهات دمشق ص ١٧٩

ومتِّعِ الطرفَ في مرأى محاسنها
بروضٍ فكرِكَ بين الروض والزَّهرِ
وانظُرْ إلى ذهبيَّاتِ الأصيلِ بها
واسمعْ إلى نغماتِ الطيرِ في السَّحرِ
وعُدْ إلى الربوةِ الغنّاء تلقَ بها
محاسناً تجتلي في أحسنِ الصورِ
حيثُ النسيمُ تمشَّى في جوانبها
تستعطف الباته الغنَّاء في البُكرِ

وهذه لوحةٌ طبيعيةٌ يبرز فيها الجمال والفن، وتحلِّق فيها قدرة الشاعرِ على التصوير والتشخيص معاً يقول (ابن الشمعة) ص ١٨١

كم بتُّ فيها قريرَ العين مرتشفاً
ثغورَ غيد تضاهي بهجة القمر
تخطو بقدٍّ البانِ مَيْلَتُهُ
لكنَّما القلبُ منها قدٌّ من حجرِ
والنرجسُ الغضُّ غَضَّ الطرفَ من خجلٍ
والبانُ مالَ على أغصانه الخَفَرُ

وفي هذا البيت وقع الشاعر بالإقواء. تغيير حركة الرويِّ. ثمَّ يتابع هذا الوصف البديع الذي يمدُّنا بنسغ الحياة:

والسوسَنُ الغضُّ كم أبدى ملاحَتَه
والأقحوان كثغرِ الريم ذي الخَفَرِ
والعندليب يغنّى والبلابلُ في
ألحانها تزدري بالناي والوترِ

ربَّما يقول قائل: هذا مألوف ودارج... ولكن لا ضَرَرَ من ذلك والجميل فيه إعادةُ خلقه فنيّاً، وإعادةُ تصويره من زوايا مختلفةَ، فالتكرار واردٌ ولكنه يبدو مستحبّاً إذا أضافَ قدرَ على انتشالك من كبوتك وخمولك وسباتك.معنا قصيدة (يحي بن سعيد المهراني الحموي) في وصفه دمشق. أراه يرسم بمشاعره هذا الجمال، يبدو طيراً مغرِّداً ومرفرفاً في هذا السحرِ الحلالِ، وحمَلَتْهُ أجنحةُ اللغة المرهفةُ على تقديمِ أبياتٍ لا تنفر منها النفس ص ١٦٢ ومطلعها:

ما بعدَ جلِّقَ في البسيطة دارُ
تجري خلالَ قصورها الأنهارُ
زادت بها الدنيا جمالاً بارعاً
وزهَتْ بحسنِ صفاتها الأزهارُ
وحوتْ محاسنَ كلِّ حُسْنٍ مبدعٍ
فيه عقولُ ذوي العقولِ تحارُ
أحسِنْ بربوتِها إذا ما أسفرتْ
شمس الربيع وغنَّتِ الأطيارُ
وافترَّ ثغرُ الزهر من أكمامه
وترنَّحَتْ ببهائه الأشجارُ
وتأزَّرت أكمامها بخمائل
باتت تحبِّرُ وشيها الأمطارُ

ما دبَّجَهُ الشاعرُ من مفردات جميلة ومعبِّرَة يعكس ما في الطبيعة من صفاء وجمال وبهاء وكلاهما معاً شكلا اللوحة الشعرية التي مرَّت معنا..

ونرى هذا التشخيص في وصف ناعورة الربوة، فالناعورة كائن تهزّه المشاعر، وتثيره الأحاسيس. وتؤلمه الحياة، فتبكي لضياع حبيب أو هجران محبٍّ تركها دون عودة...فالشاعر (مجير الدين محمد) في ناعورة الربوة ص ٤٧

أبدتْ لنا بالعُذْرِ ناعورةٌ
أدمُعُها في غايةِ السكبِ
تقول لمَّا ضاع قلبي وقد
ضعفْتُ بالنوحِ وبالنَّدْبِ
صيَّرْتُ جسمي كلَّهُ أضلعاً
تدور في الماء على قلبي

نحن نسمع ونرى الدمع ونتعاطف مع الناعورة، وكذلك (ابن نباته) وصف الناعورة وبثَّ فيها الحسَّ الإنساني ص ٤٧

اعجَبْ لها ناعورةً، قلبُها
للماء مُنْشي العيش والعشب

تعبانـــــةُ الجســـــم، ولكنَّهـــــا
كمــــا تــــرى طيِّبـــة القلـــب

حاول الأدباء أن يقـدِّموا دمشـق بهيَّـةً وجميلةً وأن يقولوا فيها شعراً يتناسَـبُ مـع حبِّهم ومكانتها وجمالِها، وهذا ما دفعهم للبحث عن الأجملِ والأطرفِ في معيـار فهـم الأدبِ حسب عصورهم، ولكنَّهم تفوَّقوا على ذاتهم في أغلب القصائد لأنّهم قبلوا السباحة والغوص في محيط محدَّد، له أبعادُهُ، وله أعماقُهُ. وكـأنَّهم في سباقٍ أبديٍّ، طويلِ الأجلِ، فدمشـق هـي الصورة الأجمل والأقرب إلى الـنفس، ومـن الطبيعي أن تكون الملهمـة. فهـذا (ابـراهيم الحرّاني) يصف محاسنَ دمشق كما عكسـتها روحه الشاعرة والمحبَّة للجمال: ص ٤٠٢

أمـا تـرى الأرض إذْ أبكـى السـحابَ بهـا
آذارُهـــا، ضـــحكتْ إذ جـــاء نيســـانُ
كأنَّمـا الـوردُ خـدُّ الحـبِّ حـين غـدا
لـــه العـــذارُ ســـياجاً وهـــو ريحـــانُ
كـــأنَّ منثورهـــا إذ لاح مبتســـماً
جـيشٌ مـن الـرومِ بانـت فيـه صـلْبانُ

كأنمـــا حُمْـــرَةُ التفّـــاحِ خَـــدُّ رشـــا
لـــي فـــي هـــواه عـــن الســـلوان سُـــلوانُ
والطيـــرُ تُطْـــرِبُ بالعيـــدان نغمتُهـــا
مـــا لـــيسَ يطـــربُ بالأوتـــارِ عيـــدانُ

اكتملت عناصر الصـورة لونـاً وحركـةً وإحساساً واستعانةً بالصور الفنيَّة المشـرقة، وهذه صورة جميلة بإيقاعها وتناغمها صـورة حيَّةٌ بنبضـها وشـفافيتها وعبقهـا. رسـمها الشاعر (محيي الـدين يوسـف ابـن سـلامة العباسي) وقد كتبها وأرسلها من دمشق إلـى بعض أصحابه: ص ٢٧٩

ويُسَـــرُّ قلبـــي لـــو تصـــحُّ لـــي المنـــى
أنـــي أنـــالُ بـــكَ المَقـــامَ وأُرْزَقَ
وإذا امـــرؤٌ كانـــت ربوعـــك حظَّـــهُ
مـــن ســـائرِ الأمصـــارِ فهْـــوَ مُوفَّـــقْ
أنَّـــى التفـــتَّ فجـــدولٌ متسلســـلٌ
أو جنَّـــةٌ مَرْضـــيَّةٌ أو جوشـــقُ

ثمَّ يقـدِّم لنـا هـذا التشـخيص اللافـت والمـنعش للـروح قبـل الأبـدان:

يبـــدو لطرفـــك حيـــث مـــال حديقـــةٌ
غنّـــاءُ، نـــورُ النَّـــورِ منهـــا يُشْـــرِقُ
يشـــدو الحمـــام بروحهـــا، فكأنمـــا
فـــي كـــلِّ عـــود منـــه عـــودٌ مـــورقُ
وإذا رأيـــت الغُصْـــنَ تُرْقِصـــه الصَّـــبا
طربـــاً، رأيـــت المـــاء وهْـــو يصـــفِّقُ

ثمَّ يختم قصيدته بيت جميل:

لا تُخْـــدَعَنَّ فمـــا اللـــذاذةُ والهـــوى
ومـــواطن الأفـــراحِ إلاَّ جِلِّـــق

الصورة الجاذبة يجذبها الشعرُ إليه ويعيدُ صياغتها فتجذبنا إليها بسحرِ لغتهـا وبراعـةِ تنسيقها وتصويرها. هذا ما نراه وندركه فـي قصيدة (إيليا أبو ماضي) " تحية الشام " فيقول معجباً ومقدِّراً ص ٢٥

ليســـتْ قبابـــاً مـــا رأيـــت وإنَّمـــا
عـــزمٌ تمـــرَّدَ فاســـتطالَ قبابـــا

ثم يقول:

واهـــبط علـــى بـــردى يصـــفِّقُ ضـــاحكاً
يســـتعطف التّلعـــات والأعشـــابا

فبردى كائن يصفق ويضحك ويستعطف، ثم يتابع في وصف بردى وتشخيصه الرائع:

روحٌ أطلَّ من السماء عشيّةً
فرأى الجمالَ هنا، فحنَّ فذابا
وصفا، وشفَّ، فأوشكت ضفّاتُهُ
تنسابُ من وجدٍ به مُنسابا
بل أدمُعُ حُورُ الجِنانِ ذرفنها
شوقاً، ولم تملكْ لهُنَّ إيابا

وهذا الشاعرِ اللبناني الآخر (الأخطل الصغير). وقد تغنّى بدمشق وقال فيها بديعَ شعره الريّان والمطرب يقول في بردى وقد خاطبه بلغة المحبِّ والمعجب: ص ٦٤

كم وقفةٍ لي في ذراكِ وجولةٍ
شعريَّةٍ وهوى الشآم سلاحي
فدَّيْتُ ليلَك والكواكبُ في يدي
ولثمتُ بدرَك والضياءُ وشاحي
ليلٌ حريريُّ النسيج كأنَّهُ
شكوى الهوى، وصَبابةُ الملتاحِ
والغصنُ في حضْنِ الرياض وسادةٌ
نَمَّتْ على عنقين من تفاحِ
متلازمين توجَّسا إثمَ الهوى
فتخوَّفا طرف الضحى اللمّاحِ

هذه صورة عذبةُ الألفاظ حريريّةُ النسجِ كما الليل وكما بردى الرقراق ولست مجاملاً في هذا الإطراء لأن الشاعر شاعر صورة ناطقة وموحية، وهذه قصيدة أخرى للشاعر وفي نهر بردى عنوانها (ضفاف بردى)، يغرِّد فيها الشاعر ، ويمارس دور السارق للدُّرَرِ والتحف. ويقدِّمُ نفسه شاعراً بثوب رسَّام.ونراه يمشي وراء مناهل الحبِّ في أحضان الطبيعة ص ١١٧

سلْ عن قديم هوايَ هذا الوادي
هل كان يخفُقُ فيه غيرُ فؤادي
عهد الطفولة في الهوى، كم ليلةٍ
مرَّتْ لنا ذهبيِّةِ الأبرادِ
إذ نحنُ أهونُ أن نحرِّكَ ساكناً
في حاسدٍ أو غُلّةً في صادِ
تتضاحك الزهرُ النجومُ لأدمعي
في جيدها، فإخالُها حُسَّادي
وأكادُ أمتشق الغصونَ تشفّياً
لتهامسِ الأوراقِ في الأعوادِ

ثم يقول وبلغة حزينة تتدفق دون هوادة:

أنا مذ أتيت النهر آخر ليلةٍ
كانت لنا ذكَّرْتُهُ إنشادي
وسأَلْتُهُ عن ضفَّتيه: ألم يزل
لي فيهما أرجوحتي ووسادي
فبكى ليَ النهرُ الحنونُ توجُّعا
لما رأى هذا الشحوبَ البادي

أهناك أرقُّ ملمساً من هذه العبارات وأقدرُ تصويراً عن هذه الأحاسيس أوفوق هذا أهناك تلازمٌ وحبٌّ وهيام بين الإنسانَ الشاعر وبين الطبيعة ؟

ونرى التشخيص لنهر بردى ولطبيعة دمشق في قصيدة الشاعر (أحمد رامي) وبعنوان – دمشق – ص ٤٠٦

يا روضةً في ربوعِ الشامِ يانعةً
ترنَّمَ الطيرُ فيها وهْوَ نشوانُ
وللغديرِ على ترصيعه نَغَمٌ
من الخريرِ له ضَرْبٌ وأوزانُ

فالصور تتواثب والمفردات تعزف ما ينتابه الشاعر من حسٍّ رقيق نحو دمشق. فلا يراها إلاَّ حسناء فاتنة، تدبُّ فيها الحياة فيقول:

يا روضةً بردى في وشي بردته
يختالُ بين رُباها وهو جذلان
غنَّى الزمانُ بها تيهاً وردَّدها
من جانب النيلِ أحبابٌ وخلاَّن

وقد أحبَّ شعراء دمشق مدينتهم، وعشقوها أيَّما عشق، تشدُّهم إليها بالقرب والبعد. أخلصوا لها فصاغوها عقداً ثميناً من القصائد الفوَّاحة التي تضجُّ بها الحياة. هذه أبيات للشاعر (خليل مردم بك) يقول: ص ٦١

نسماتُ الغوطةِ إذ تسري
لو تُسْمِعُ ناحَتْ أرواحا
وظلالُ الحَوْرِ على النهرِ
في الليل تراءت أشباحا
بين الريحان أو الزهرِ
عرفٌ لذكيٍّ دمٍ فاحا
بردى يبكيه إذا يجري
والبلبل إن غنَّى ناحا

وقصيدة الشاعر (خليل مردم بك) وبعنوان – بردى – تقدِّم لنا ما نسعى إليه وتحاول التعبير عنه وهي طويلة أبياتُها ثمانية وسبعون بيتاً فيها صورٌ حيَّةٌ وموحية، سأذكر بعضها ولك أن نتحسَّس مواطن الجمال والتشخيص والتصوير معاً: فيقول ص ٦٦

نهرٌ عرائسُهُ من عبقر عزفَت
له ولاحت بأرواحٍ وأشباحِ
أهلٌ كالطفلِ وضاءً، مخايلُهُ
دلَّتْ على مائر العطفين طمَّاحِ
قامت حواضنُهُ من جانبيه على
أغرَّ أزهرَ نضير الوجه نضَّاحِ
يحبو، وينمو وما ينفكُّ مُطَّرداً
بغُرَّة ذات لألاء وأوضاحِ

ثمَّ يقول:

ما مرَّ في بقعةٍ إلاَّ وخاطبَها
طوراً بغمغمةٍ، طوراً بإفصاحِ
يجدُّ في ضيقِه حتى إذا انفرجت
ضفافُهُ سارَ وَهْو أسيرَ ممراحسمحٌ فإنْ
عارضَتْهُ هُوَّةٌ قُذُفٌ
أراك إقدامَ وثَّاب ودلاَّحِ

فالصور تتلاحق وتتزاحم لتواكب مسار النهر في حركتهِ وفي كلِّ الفصولِ والظروف، يحيط الشاعرُ بحركته ومساره ولكنه لم يقدِّمه صورة جامدة لا روحَ فيها. بل قدَّمَهُ إنساناً له تاريخ ودراية وحسن تصرُّف يغضب ويثور ويضيق ويفرح..

والزهر يلوي بأعناقٍ، ويبسم عن
دُرٍّ، ويرنو بعينٍ ذات تلماحِ
نشوانَ، أنفاسُهُ نمَّتْ عليه فمنْ
زاك ومن عبقٍ بالسِّرِّ بوّاحِ
بثَّ الحياةَ، وبثَّ الحسنَ حيث جرى
وانساحَ، بورك من جارٍ ومُنْساحِ
هذي دمشقُ بما فيها هديَّتُهُ
أكرم بها منحةً ! أكرمْ بمنَّاحِ !

هذه القصيدة من القصائد التي وفِّق الشاعر بروِيّها وقافيتها، فحرف الحاء المشبع بالكسر يبعث على الانفتاح والانشراح ويتناسبُ مع مسارِ النهر.....

سوف نرى صورة مغايرة من التشخيص لدى الشاعر (عدنان مردم بك) وهو يصف لنا خريف دمشق " الخريف في دمشق "... نراه يستعين بمفرداتٍ وصور تتناسَبُ مع الموضوع ومع مفردات فصل الخريف التي تبدو بارزة على معالم الطبيعة فيقول في مطلعها ص ١٨٨

مُقَلُ الخريفِ على الثرى تجري
بدموعِ ثاكلةٍ على قبرِ

ثم يقدِّم شريطاً من الصورِ الطريفة والماتعة دون تغافلٍ أو إغفالٍ للدلالات اللفظية أو سياق الجمل الشعرية:

والشمسُ تومئ وهي شاحبة
من خدرها بأناملٍ صُفْرْ
ترنو بمقلةِ موجَعٍ كُحِلَتْ
أجفانُهُ بالسُّهْدِ والمرِّ

ثم يقول ملتقطاً زاوية أخرى:

والماءُ يضربُ في مساربِهِ
مُتَعَثِّراً حيران لا يدري
يهوي على حَذَرٍ ويُمْسِكُهُ
حيناً وساوسُهُ فلا يجري
ويكادُ يعثُرُ في تخبُّطِهِ
من رعشةٍ بيمينِهِ تسري
زفراتُهُ في كلِّ منعطفٍ
تجري بها مُشْعَلٌ من الجمرِ

والقصيدة حافلةٌ بألوانٍ من الصورِ الجادّةِ والمبتكرة، وهي تحكي لنا قدرة الشاعرِ على تقديم الطبيعةِ بلباسها الطبيعي دون زيف ولكنّه يضفي عليها من رونق شعرِهِ وعذوبة ألفاظه.

والديوان يذكر مجموعةً من القصائد للشعراء الدمشقيين المعاصرين وفي هذه القصائد تتّضحُ معالم المدرسة الشعرية الشامية التي تهتم بالتصوير والوضوحِ وحسنِ السبك الرقراق فتراها كلوحةٍ من لوحات طبيعتهم. فهذا الشاعر (محمد بزّم) وفي قصيدة عنوانها " دمشق " وقدّمها إلى مقاطع وعناوين وبلغ عدد أبياتها مئة وستة وأربعين بيتاً. ولا تخلو من التشخيص والتصوير البديع: ص ٨١

ضحك الغدير إلى الغدير وقهقهت
لهما المتاعب مُبدئاً ومُعيدا
عذراءُ تحسبها العشيّةَ مومسا
تُغري بزينتها الفحولَ الصِّيدا
غَنِجَتْ فدغدغها النسيم كما انتحَتْ
أيدي الخلاعةِ في الصدور نهودا
وثنتْ معاطفَها الغصونُ فكلُّها
ثملٌ يعانقُ من أخيه ميودا

يتمازج الدمعان: دمع غمامها
بحبيس خضرتها فتُنْضِرُ عودا
وافترَّ ثغرُ الليل عن أندائها
حَبَباً عل أزهارها منضودا

لم تقصِّر الطبيعةُ الخلاّبة برفدها للشعراء ألواناً من التصوير والإبداعِ، فكانت الملهمةَ لشعراءَ مجيدين ومبدعين هاجسُهم الشعرُ الرافي، فالشاعر (أنور العطار) أحبَّ دمشقَ وغوطتها وقال فيها أبدعَ قصائده وأغناها فنّاً ومضموناً فيقول في وصفه – دمّر – ص٢٥٧

كلُّ شيء يحيا بدمَّرَ فالسفـ
ـحُ يغنِّي والروحُ يَنْدى ويَعْبقْ
والنسيم الحبيبُ ينفح بالعطـ
ـرِ وينشي كالبابليّ المعتَّقْ

هــوَ ذا الياســمين مــدَّ علــى الصخـــ
ر شــــباكاً مـــــن نَــــوْرِه وتســــلَّقْ
تتغنَّـــى الحقــولْ ســكرى مـــن العطـــ
رِ ومـــن شـــجعةِ الحمـــامِ المطـــوَّقْ
بلبـــــلٌ فـــــي غصـــونه يتشــــكّى
ونهيـــــرْ بدمعــــــه يترقــــرق
والمســـاءُ الجميـــل شـــعر بهـــيٌّ
دغدغَتْـــــهُ قيثـــارةٌ تتشـــوَّقْ
والحقــولُ اللطــافُ تنــدى مــن البشـــ
رِ ويســـري بهـــا الشـــرابُ المــروَّقْ
نهـــل الـــروحُ مـــن نـــداها فغنَّـــى
وانتشـــى النهـــرُ مـــن شـــذاها فصـــفّقْ

هذه إحدى اللوحات البديعة. تتعانق فيهـا عناصر الطبيعة مشكلة لوحة تهتـف للجمـال والحياة فتلتقطها عبقريـة ملهمـة وشـعريّة فيّاضة صـاغتها صـوراً لا تـذبل ولا يخبـو بريقها.فالشاعر اللبناني الشيخ (فؤاد الخطيب) يصف الغوطة الغنّاء ويقـول فـي مطلعهـا: ص١٣٢

أنـــا فـــي الغوطـــة أســتوحي الشــعور
إنَّ فـــي الغوطـــةِ بعثـــاً ونشـــور
أحيـــت الأحـــداقَ فـــي نرجســـها
وأعــــادتْ فــــي الأقــــاحيِّ الشــعور
ولقـــد حــــدَّثني رمّانُهـــا
أنّـــهُ كـــان نهـــداً فـــي الصـــدور
وروى لـــــي البـــانُ عـــن أعطافـــه
أنَّـــهُ كـــانَ قـــدوداً وحضـــور

ثم يتابع وصفه البديع وهـو يسـتعرض ذكرياته فيها.

والصَّـــبا تخفـــق فـــي أطرافِهـــا
مثلمـــا يخفـــق فـــي القلـــب الســـرور
وخلونـــا بـــين أحشـــاء الرُّبـــا
حلـــوة الـــوُرْقِ جُثومـــاً فـــي الوكـــور
وتشـــاكينا تبـــاريح الهـــوى
حولنـــا السوســـنُ مُسْـــتحى غيـــورْ

لك أن تمسك خيوط الجمال في هذا الإبداع والوصف. فالنفس الصافية تهتـزُّ طربـاً ولا تخفي إعجابها بالجمال، فسرعان ما تعبِّرُ عمَّا ينتابها وينطبع في ذاكرتها وأعماقها. فالجمالُ يكافئُهُ جمالٌ والحسنُ لا يجاريـه إلاَّ الحســنُ. فيقول الشاعر(أنور العطار) ص ١٩٥

أيُّ ســـحرٍ هـــذا الـــذي امتلـــك القلـــ
فنـــــدَّى الأرواحَ بالأعطـــــارِ
معبـــد الجمـــالِ أبدعَـــهُ السّحْـــ
رُ ووشَّـــتْهُ قـــدرةُ الأقـــدارِ
هـــو دنيـــا الفتـــونِ مـــلءُ حوافيـــ
هِ رُواءٌ مُجـــــدِّدُ الأعمـــــارِ
ســـلوةُ الهـــائمينَ، نجـــوى المحبّيـــ
نَ، مَـــراحُ الأرواحِ والأبصـــارِ
تتغنَّـــى العطـــورُ نشـــوى مـــن العطْـــ
رِ وتهتـــزُّ عـــن نـــدى مخمـــارِ
ســـأغنّيك يـــا حديقـــة إلهـــا
مـــي لحُونـــاً ســـحْريَّة الأوتـــارِ

أمامنا حالات عشقٍ تتجاوز الجسدَ والأشخاص إلى الوجد الصوفي بين الشاعر جسداً وروحـاً وبين الطبيعة سحراً وفتنةً فهذا الشاعر (ابـن عبد الرزاق) يقول قصيدة على نسق قصيـدة الشيخ (عبد الغني النابلسي) الذي يقول مطلعها ص٣٣٧

ذيـلُ قاسـيونَ بلَّلتْـهُ النسـائمْ
بنـدى الـوردِ والبخـور والكمـائمْ

فيقول (ابن عبد الرزاق) ص ٣٣٨

نبَّهَـتْ مُقْلَـةَ الريـاض نسـائمْ
وأثـارَتْ عبيـرَ تلـك الكمـائم
وتَثَنَّـتْ معـاطفُ الـروحِ لمَّـا
قَلَّـدتْها عقْـدَ الزهـورِ الغمـائم
وشَـدَتْ فوقهـا سـواجعُ وُرْقٍ
فأهاجـت بلحنهـا كـلَّ هـائم
فوقهـا العنـدليبُ قـام خطيبـاً
يتهـادى مـا بـين خُضْـرِ العمـائمْ
وثغـورُ الأقـاحِ قـد بَسَـمَتْ مُـذْ
أيقـظ الطَّـلُّ جَفْنَـهُ وهْـوَ نـائمْ

وجد الشعراء ضالتهم في الطبيعة التي تحيط بدمشق، وتزيدها خلقاً وجمالاً فالتقت إلى جانبها الماء والخضرة والسهل والجبل والنبعُ والناسُ المحبُّون للطبيعة والنزهات فرأوا فيها لوحات إنسانيةً تحتفي بالمسرَّات وتتعاطف مع القادمين والمقيمين. فتقاربت أفكارُهم، واقتبسوا بعضاً من قصائد الآخرين وصورهم ومع ذلك تبقى القصيدة الدمشقية ذات نكهة مميَّزة، أناقة في اللفظ وسهولة في المعاني والجُمَلِ، ورقَّةٌ وعذوبةٌ في الأحاسيس وديباجةٌ مزركشة الألوان والأحاسيس. كلُّها تشكل لوحة القصيدة الشعرية إلى جانب لوحة الطبيعة التي رأوا فيها الحس والدفق والحبَّ فكانت إنساناً له من المشاعر ما لنا، وهذه أبيات من قصيدة (نزار قباني) بعنوان " من مفكرة عاشق دمشقي " وقد ألقاها في مهرجان الشعر العربي بدمشق كانون الأول / ١٩٧١ /. فدمشق الحبيبة وحسبه ذلك في خطابها ص٢٥

فرشـتُ فـوق ثـراكِ الطـاهرِ الهُـدُبا
فيـا دمشـقُ لمـاذا نبـدأ العتبـا ؟
حبيبتـي أنـتِ فاسـتلقي كأغنيـة
علـى ذراعـي ولا تستوضـحي السـببا
أنـتِ النسـاءُ جميعـاً مـا مـن امـرأة
أحببـتُ بعـدك إلاَّ خلتُهـا كـذبا
أنـا قبيلـة عشّـاقٍ بكاملهـا
ومـن دمـوعي سـقيتُ البحـرَ والسُّـحُبا
فكـلُّ صفصـافة حوَّلتهـا امـرأةً
وكـلُّ مئذنـةٍ رصَّـعتُها ذهبـا
هـذي البسـاتين كانـت بـين أمتعتـي
لمـا ارتحلـتُ عـن الفيحـاءِ مغتربـا

إذاً عاشت الطبيعة الدمشقية بين جوانح الشعراء في حلِّهم وترحالهم وفي مرَحهم وترحهم. أمدَّتهم بنسغ الشعر وروحِه، ودغدغَتْ أضلاعَهم فكانوا مقدِّرين ذلك فبادلوها حبّاً بحبٍّ وإعجاباً بإعجابٍ ورونقاً برونق....